هتتأخَّر على الثورة

دفتر يوميَّات
عالم أنثروبولوجيا شهِد الثورة

تأليف: صامولي شيلكهِ

ترجمة: عمرو خيري

"هتتأخَّر على الثورة".
المؤلف: صامولي شيلكهِ.
ترجمة: عمرو خيري.
الطبعة الأولى ٢٠١١.
دار النفيسة للعلوم والآداب لنشر وتوزيع الكتب.
هاتف: ٠١٩٣٨٣٠٨٩٩
رقم الإيداع:
الترقيم الدولي:
الناشر محمد إبراهيم سرحان.
مصمِّم الغلاف: د/ خلف طايع
التدقيق اللغوي والإخراج الفني: محمود عبد الرازق
www.sa77sa77.com

المحتويات

المحتويات ٣
مقدِّمة المترجم ٥
مقدِّمة الكاتب ٩
الجزء الأول من ٣٠ يناير إلى ٢٤ فبراير رحلتي الثانية إلى مصر..... ١١
الثلاثاء، ٢٥ يناير ٢٠١١ ..... ١٣
الأحد، ٣٠ يناير ٢٠١١ ..... ١٥
الاثنين، ٣١ يناير ٢٠١١ ..... ١٨
الثلاثاء، ١ فبراير ٢٠١١ ..... ٣٠
الأربعاء ٢ فبراير ٢٠١١ ..... ٣٦
الخميس ٣ فبراير ٢٠١١ ..... ٤٢
الجمعة ٤ فبراير ٢٠١١ ..... ٤٦
السبت ٥ فبراير ٢٠١١ ..... ٥٣
الأحد ٦ فبراير ٢٠١١ ..... ٥٨
الخميس، ١٠ فبراير ٢٠١١ ..... ٦٥
الخميس ٢٤ فبراير ٢٠١١ ..... ٧٠
الجزء الثاني من ٥ إلى ١٩ مارس رحلتي الثانية إلى مصر..... ٧٣
السبت ٥ مارس ٢٠١١ ..... ٧٥
الاثنين ٧ مارس ٢٠١١ ..... ٨٤
الثلاثاء ٨ مارس ٢٠١١ ..... ٩١
الأربعاء ٩ مارس ٢٠١١ ..... ٩٨
الخميس ١٠ مارس ٢٠١١ ..... ١٠٨
الجمعة ١١ مارس ٢٠١١ ..... ١١٥
الثلاثاء ١٥ مارس ٢٠١١ ..... ١٢١
الأربعاء ١٦ مارس ٢٠١١ ..... ١٣٩

الخميس ١٧ مارس ٢٠١١ ..... ١٤٧
السبت ١٩ مارس ٢٠١١ ..... ١٥٤
عن الكاتب..... ١٦٧

مقدِّمة المترجم

كغيري من المصريين المهتمين بأحوال وتطورات الثورة منذ وقوعها، وقعت ضحية لفيضان الأخبار اليومي الذي لا يترك أي مجال للتفكير المرتب، أو التحليل المبني على المنطق لمسار الأحداث، وإلى أين يحملنا هذا المد الثوري الرهيب؟ لكن مرت الأشهر، ودخلنا مرحلة انتقالية متعثرة، لا يعلم نهايتها أحد، فوجدت من الضروري أن أضع يدي على أطراف خيوط أو أدلة هنا وهناك تنير لنا الطريق، ورحت كغيري أبحث عن أي مادة جيدة للقراءة أسترشد بها عن مسار الثورة ومراحلها وأطرافها، في محاولة لقراءة المستقبل، والأهم فهم الحاضر.

من ثم، كان من المنطقي أن أبحث عن أصوات رشيدة أو محايدة تتابع الأحداث، حتى اهتديت بالصدفة البحتة إلى دفتر يوميات لعالم أنثروبولوجي فنلندي، مقيم في ألمانيا، مهتم من قبل الثورة بالشأن المصري، وله فيه باع طويل.

ولما كنت أبحث عن أي دور أؤديه لإثراء المعرفة بالثورة، فقد قررت ترجمة هذه "الأجندة" لصامولي شيلكه، وأعرضها للقارئ كما وصفها صاحبها:

"بصفتي باحثًا أنثروبولوجيًّا، أعتمد على منهج دفتر اليوميات في البحث، وهو من مناهج عملي الأساسية المعتمدة، أسجل فيه كل شيء: كلامي مع الناس، والأحداث من حولي، وأفكاري في اللحظة التي تطرأ عليَّ فيها هذه الأفكار. دفتر

يوميات العمل الميداني هو أكثر من مجرد مادة خام، فهو المرحلة الأولى من مراحل صياغة نظرية أنثروبولوجية حول أي قضية من القضايا، من ثم فإن دفتر يوميات باحث الأنثروبولوجي شأن شخصي وأكاديمي في الوقت نفسه، ولهذا فإن باحثي الأنثروبولوجي لا ينشرون دفتر يومياتهم أبدًا. لكن في أثناء الثورة قررت أن أمزج دفتر يومياتي بمدونتي بهدف إطلاع الجمهور الغربي على ما يحدث في مصر. وشهدت الأيام الأولى من فبراير تحديدًا لهفة بالغة على التحليل للشأن المصري في شتى أنحاء العالم، ورأيت أن دفتر يومياتي هو أبلغ ما يمكن أن أقدمه لتوفير هذا التحليل المطلوب.

هذا الدفتر هو أنسب طريقة بالنسبة إليَّ للكتابة عن لحظات التغيير، عندما يختلط التحليل الأكاديمي والالتزام السياسي وكل ما هو شخصي ومهني فلا يمكن التمييز بين هذا وذاك، وتصبح كل محاولة لتفسير الأحداث مرتبطة لزامًا باللحظة وبموقفي منها.

سوف تدخل بعض أجزاء هذا الدفتر في كتاب عن الأخلاق والدين ومطامح الناس، أنتهي من إعداده قبل نهاية عام ٢٠١١، لكن أرى في هذا الدفتر عملاً بحثيًا قائمًا بذاته، بما أن أي محاولة لتنقيح المذكرات أو تحويلها إلى تحليل يتخذ مسارًا محددًا كفيلة بتدمير كيفية تعبير يومياتي هذه عن اللحظة. أحيانًا يتخذ التحليل المسار الصحيح، وأحيانًا ينعطف إلى مسار خاطئ، وقد أصابت بعض توقعاتي كما دونتها وأخطأت أخرى، لكن في النهاية أرى أن الأخطاء جزء لا يتجزأ من الموضوع، أرى أن دفتر اليوميات بما يحمل من تناقضات وأخطاء وانحياز للثورة هو شهادة صادقة على الثورة، أصدق من أي تحليل لاحق يتحرى التصويب والاتزان".

وقد دوّن الكاتب في "أجندته" مشاهداته اليومية لحظة بلحظة عن ستة أيام قضاها في ميدان التحرير والقاهرة قبل أن يرحل الرئيس المخلوع مغلوبًا على أمره تحت ضغط الإرادة الشعبية، ثم عاد وزار مصر مرة أخرى في شهر مارس، ودوّن مشاهداته عن أيام قضاها في مركز مطوبِس في كفر الشيخ، وفي الإسكندرية وعلى أطرافها، وقبل أن يرحل عن مصر للمرة الثانية منذ بدء الثورة سجّل شهادته عن حالة وسط البلد وميدان التحرير، وآخر الساعات التي سجلتها هذه "الأجندة" هي صباح الاستفتاء على التعديلات الدستورية.

ليس هناك أهم لفهم واقعنا اليومي الجديد من مشاهدات عالم أنثروبولوجي متمرِّس، يرى المجتمع المصري حقلاً يجري فيه أبحاثه، من قبل الثورة، وهو الغريب على البلد لم ينغمس فيه كأهله ولم يتحول إلى جزء من جدارية الوطن الكبيرة مثلنا، عنده من أدوات التحليل والمعرفة القدر الكافي لتقديم الصورة الكبيرة الواضحة، وهو في الوقت نفسه يشعر وكأنه من أهل مصر، وله فيها الكثير من الأصدقاء والمعارف ويتحدث اللغة العربية واللهجة العامية المصرية بإتقان بالغ، ويتابع الأخبار بكل اهتمام، فهو ليس بغريب، ولم يبدأ اهتمامه بمصر من بعد الثورة كحال الكثير من "المعلِّقين" و"المحللين" الخارجيين الذين يكتفون من التعليق على الثورة بما يهم الغرب ومصالحه، ومن منطلقات يعتبر أغلبها بعيد بشكل مُخلٍّ عن ما يوفر الفهم الصحيح لأحوال المجتمع المصري.

باحث الأنثروبولوجيا بشكل عام يقضي سنوات طوال من الإعداد والتجهيز قبل أن يعتبر نفسه مستعدًا للبدء في العمل الميداني في أي مكان، فعليه قبل أن يبدأ أبحاثه أن يلم إلمامًا ممتازًا بلغة المجتمع الذي يعتزم دراسته، وثقافته وعاداته وتقاليده

وكل أحواله، ويرتبط ارتباطًا وثيقًا بالمجتمع الذي يبحثه، ويقضي في دراسته ميدانيًا فترات طويلة. مصر إذن هي مشروع الكاتب البحثي، والمجتمع المصري هو ما يخصه بالمتابعة والدراسة، ومن هنا تنبع أهمية هذه اليوميات، التي أجدنا في حاجة ماسة إلى قراءتها، وأعتبرها واحة من الفهم السليم بنظرة قد تكون محايدة وسط صحراء من الآراء المرتبطة حتمًا بكوننا مصريين صنعنا الثورة وتأثرنا بها ونمضي على طريقها.

وأخيرًا أشكر للكاتب مراجعته الدقيقة للترجمة وما خصصه من وقت وجهد لمتابعتها، وأتحمل مسؤولية أي أخطاء قد يراها القارئ في الكتاب. وأرجو أن يضيف هذا الكتاب (أو الأجندة) إلى نظرة القارئ إلى أحوالنا وأحوال ثورتنا، فهذا هو هدفي الأول من جهدي المتواضع في نقله إلى اللغة العربية.

مقدِّمة الكاتب

هذا هو دفتر يومياتي عن ثلاثة أسابيع قضيتها في مصر في أثناء الثورة، في ربيع ٢٠١١. تغطي اليوميات رحلتين إلى مصر، الأولى من ٣٠ يناير إلى ٦ فبراير، والثانية من ٥ إلى ١٨ مارس، وهي فترة قصيرة وإن كانت قد مرّت عليَّ طويلة للغاية.

منذ لحظة امتلاء الشوارع بالمتظاهرين في ٢٥ يناير، اجتاحني إحساس قوي بضرورة السفر إلى مصر، ولي فيها أصدقاء كثيرون مقربون، أعرفهم منذ أكثر من اثني عشر عامًا، وقد درست في مصر وأجريت فيها أبحاثًا كثيرة وعشت مع أهل مصر. خرج الملايين في ٢٨ يناير من كل ربوع مصر، فحجزت تذكرتي إلى القاهرة في زيارة قصيرة، بهدف تكوين فكرة عن الأجواء وطعم الحياة في أثناء انتفاضة شعبية فاجئتني تمامًا. كنت ملتزمًا بإلقاء بعض المحاضرات العامة في فنلندا خلال الأسبوع الثاني من فبراير، فقررت الذهاب إلى مصر لمدة أسبوع واحد، بهدف العودة إلى أوروبا وتعريف الناس بالوضع وحشد الدعم الدولي للثورة. كانت بكل وضوح فترة قصيرة للغاية، وكنت سيئ الحظ على أفضل تقدير في توقيت سفري ورجوعي، إذ سافرت إلى مصر بعد أيام من ٢٨ يناير، وتركتها قبل أيام من ١١ فبراير. من ثَم قررت العودة إلى مصر

في أسرع وقت ممكن، وهي الرحلة الثانية، من ٥ إلى ١٨ مارس، الفترة التي شهدت التحول من الحماس الثوري إلى فترة انتقالية زاخرة بالقلق والصراعات.

بصفتي عالما أنثروبولوجيًّا، تركزت أبحاثي خلال السنوات الماضية على آمال الناس وإحباطاتهم، وكيف يحاولون العيش بكرامة في ظروف من الإحباط واليأس الدائمين. لكن لم أفكر بجدية في احتمال ظهور وعي جمعي مفاجئ قادر على تغيير هذه الأوضاع. وقبل ٢٥ يناير بأيام، سألني صديق إن كانت مصر ستشهد ثورة مثل تونس، فقلت لا، لأنه من الصعب للغاية تحريك الناس في مصر، لكن ثبت خطئي. تحرك الناس، وتبيَّن لي أن الكثير مما أعرفه عن المجتمع المصري يحتاج إلى المراجعة والتعديل. لكن ليس تصحيح المعرفة الأكاديمية هو الشيء الوحيد المحتاج إلى الاهتمام وتسليط الضوء، فخلال أسابيع قليلة أمضيتها في مصر بعد بدء الثورة مباشرة، تغيّرت أنا شخصيًا وتغيرت أولوياتي. في فترة قصيرة، تحولت من باحث أنثروبولوجي متعاطف مع الأحداث التي يشهد عليها، إلى ناشط ملتزم بالثورة ولو خاطرت بنفسي في سبيلها. دائمًا ما تسير التحولات الشخصية جنبًا إلى جنب مع التحولات السياسية.

من الدروس الهامة التي تعلمتها في أثناء هذه الأسابيع، أهمية الصداقة والتضامن بين الأصدقاء. صادفت بين أهل مصر الكثيرين ممن استضافوني وأطعموني ونصحوني وشجعوني وحموني في بعض الأحيان، وفي الوقت نفسه تأثرت بتصميمهم على تغيير حياتهم ومجتمعهم للأفضل، وأصبت بالعدوى من هذه الروح. وطالما نتائج الأحداث لم تُحدد بعد، فلا يمكنني ذكر أي أسماء لأصدقاء قضيت معهم أوقاتًا طيبة. أنا مدين بالشكر أيضًا لكل الأصدقاء الذين ساعدوني في توصيل يومياتي إلى الإنترنت ودأبوا على نشر ما أتوصل إليه من أخبار.. إلا أن الشكر الأكبر لشعب مصر الذي آمن بقدرته على تغيير أحواله بدلاً من التكيف معها.

الجزء الأول

من ٣٠ يناير إلى ٢٤ فبراير

رحلتي الثانية إلى مصر

الثلاثاء ٢٥ يناير ٢٠١١

مقدمات في برلين

يوم هام من المظاهرات في مصر، مظاهرات حاشدة شملت جميع أنحاء البلاد، تطالب مبارك ونظامه بالرحيل. شيء مدهش؛ أتمنى لو كنت هناك. أتابع الأخبار والتغطيات ومقاطع الفيديو التي يرفعها الناس على الإنترنت أغلب فترات المساء. تحدثت مع (ب) الذي عاد منذ قليل من المظاهرة. قال لي إن الشرطة كانت قاسية جدًا، وقال أيضًا إنه سعيد جدًا لوجوده هناك، فربما لا يتكرر ما حدث ثانية على مدار حياته. سيذهب إلى المظاهرات غدًا مرة أخرى.

كم يغير هذا من كل شيء! يا لقدرة يوم كهذا على تغيير الصورة التي رسمتها مؤخرًا للناس المحاصرين في دائرة حياتية في ظل نظام مُحبِط يحوِّل كل وعد من وعوده إلى ضغوط وكل انحراف عن النظام إلى جزء من النظام! ها هي لحظة يطلون فيها بأعينهم على الأمل، المستحيل يبدو فجأة في متناول اليد، خطوة مختلفة تُتخذ، تختلف عن ما كان يمكن عمله قبل أسابيع أو أيام، فيتغير العالم تغيرًا صغيرًا.

حتى لو سُحقت هذه الثورة (لكنني متفائل)، فلمحة الأمل هذه.. تلك اللحظة التي انفتح فيها الطريق، حيث كان ينتصب من قبل جدار، لهي شيء يستحق الاعتناق، مثلما قال (ب) عندما تحدثت معه. وهذا جزء من حوارنا:

ب: حاجة تفرح. اليوم ده صعب إن الواحد يشوفه كتير.

سألته عن الشرطة.

ب: كانت شرسة لكن بخبث.

أنا: كيف؟

ب: سايبين المظاهرات الكبيرة شغالة وبيجمعوا الناس في الشوارع الضيقة الفرعية وشبكات الموبايل مقطوعة. وكانوا بيحدفوا لمبات قزاز من على العمارات على الناس اللي بتتظاهر وبيضربوا الشباب في الشوارع الجانبية ويعتقلوهم.

أنا: لكن أنتم خرجتم بجماهير وفي كل أنحاء البلد. ده محصلش بعد ١٩١٩.

ب: أيوة. الناس ناوية تعمل حاجة بجد. وبدل ما يكون عيد الشرطة راحة للشرطة وتكريم لها، الناس قررت إنه يكون يوم الشرطة ما تنساهوش أبدًا... بجد أنا فرحان إني حضرت حاجة زي دي. لأنها ممكن ما تتكررش في عمري تاني.

الأحد ٣٠ يناير ٢٠١١

"هتتأخر على الثورة"

مطار فرانكفورت، ١٠:٣٠ صباحًا

بعد تردد طويل، اتخذت ليلة أمس قرار السفر إلى القاهرة بعد أن أكد لي (م) أن الوضع آمن في الجيزة. تغير موعد الرحلة إلى ٩:٣٠ صباحًا بدلاً من ١٢ ظهرًا كي تصل الطائرة إلى القاهرة في النهار قبل بدء حظر التجوال. ركبت قطار الصباح السريع من مينز، حيث كنت أقيم مع أصدقاء، إلى المطار. مر كل شيء على خير، انتهيت من إجراءات السفر في المطار، لكن ما إن وصلت إلى البوابة ب٢٥ حيث كان من المقرر أن نركب الطائرة، أعلِن عن إلغاء الرحلة. مسؤول خطوط جوية من أصل مصري أوضح الموقف لنحو من ٢٠ إلى ٣٠ راكبًا مصريًا: مطار القاهرة مغلق، لا أحد يعمل فيه، ولا يوجد طاقم فني، ولا يوجد أمن أو جمارك ولن تقلع طائرات إلى القاهرة اليوم. جميع الرحلات إلى القاهرة ملغاة. (فيما بعد قال شخص اتصل بأشخاص في المطار إن المطار ليس مغلقًا لكنه يُغلق. الموظفون والعمال متواجدون في المطار، لكن لا يعملون. السبب غير واضح). الناس بالطبع كانوا قلقين جدًا وفي غاية اللهفة على الوصول إلى مصر بأي شكل، وناقشوا المشكلة والاحتمالات القائمة طويلاً مع العاملين بالخطوط الجوية.

كما بدأت تظهر مناقشات سياسية حامية، تركز على أعمال النهب التي شهدتها الليلة الماضية. الجميع قلقون على سلامة عائلاتهم وممتلكاتهم والموقف بشكل

عام في مصر. تراوحت الآراء كثيرًا حول سبب المشكلة والحلول الممكنة. أحد الركاب كان قد وصل من الولايات المتحدة في طريقه إلى مصر، قال إن شعب مصر عبارة عن ٨٠ مليون بلطجي وإنه لو كان في ميدان التحرير يوم الثلاثاء عندما بدأت المظاهرات كان سيطلق النار على المتظاهرين ليقتل منهم المئات، ودعونا ننسى حقوق الإنسان حتى نعالج الفوضى من جذورها. عارضه رجل أكبر سنًا، وقال على العكس، المصريون شعب طيب ولا بد أن لا يُتهم بأعمال البلطجية والمجرمين الذين استغلوا الموقف. رجل آخر في الخمسينيات وافق الأول وقال إن الموضوع بأسره خرج عن السيطرة لأن المظاهرات لم تُقمع بيد من حديد منذ البداية. إذا كانت حركة المظاهرات قد أثرت أي تأثير على هذين الرجلين، فهي قد أكدت لهما إيمانهما بأنه لا بد أن تُحكم مصر بيد من حديد، إلا أن هناك آخرين خالفوهم الرأي بشدة، وهناك آخرون تفادوا التورط في ذلك النقاش. تحدثت لفترة أطول مع أربعة شباب، منهم شابة مصرية تعيش في ألمانيا، وأخرى في طريقها من فرنسا إلى مصر، ورجل من صعيد مصر يعيش منذ أربع سنوات في الولايات المتحدة وهو عائد لأنه قلق على أسرته، وطيار في القوات الجوية مسافر خارج مصر منذ ستة أشهر. هؤلاء الأربعة لم يلقوا باللوم على المتظاهرين، بل على الرئيس، والأوضح بينهم كانت الشابة التي تعيش في ألمانيا والتي قررت العودة إلى مصر كي تشارك في الثورة، والتي قالت إن هذه الفوضى لن تتوقف إلا "لما يرحل". قال طيار القوات الجوية بدوره، والذي خفض صوته (ما زال الناس يخشون وجود المخبرين وسط الركاب): إن تكلفة تأمين انتقال حسني مبارك من مسكنه في مصر الجديدة إلى مطار ألماظة العسكري في حال سفره إلى أي مكان، تبلغ وحدها ٨ ملايين جنيه. وكان يرى أن على الرئيس أن يرحل.

كان كل من يحاولون السفر إلى مصر قلقين، يعتريهم القلق والتوتر. الكثير منهم أمضوا الـ ٤٨ ساعة الأخيرة أمام شاشات التلفزيون، ولم ينم الكثير منهم ليلة الأمس. وأنا شخصيًا لم أنم إلا ثلاث ساعات. على اختلاف رؤاهم للموقف، اشتركوا جميعًا في القلق على سلامة أسرهم. لكن عندما اتصلت بـ (م) لأقول له إنني لا يمكنني المجيء اليوم، وجدت حالته المزاجية ممتازة، بل كان متحمسًا وسعيدًا بالوضع في مصر، وقال لي: "خسارة! هتتأخر على الثورة" وكان قد جمع تذكارات ثورية: عبوات غاز مسيل للدموع وزجاجات مكسورة والكثير غير ذلك، وكان يتطلع إلى أن يريني ما معه في الغد.

تأجل موعد الرحلة إلى الغد، الساعة ٨:٣٠ صباحًا. سوف تحاول خطوط طيران لوفتهانزا السفر إلى القاهرة في أسرع وقت كي تقوم طائراتها بإعادة المواطنين الألمان العالقين في مطار القاهرة، فقد كان هناك الآلاف، بل عشرات الآلاف، على حد قول أحدهم، لكن هذا لن يحدث اليوم.

الاثنين ٣١ يناير ٢٠١١

"كان أول يوم في حياتي أحس إني إنسان فعلاً"

أنا في الطائرة من فرانكفورت إلى القاهرة، ويا للعجب! وضد شكي الشخصي القوي وتساؤلي المتكرر عن ما إذا كان سفري إلى مصر الآن فكرة سديدة. بعد أن عدت من المطار وتابعت الأخبار حول أعمال نهب وفوضى ليلة أمس، وتعداد الوفيات الكبير في ليلة الجمعة، عندما – كما يظهر– أطلقت قوات الأمن في عدة مدن النار على المتظاهرين لقتلهم بالذخيرة الحية، اشتد قلقي كثيرًا، لكن، عندما اتصلت بـ (م) و(ج)، قالا لي إن الوضع آمن. (م) يقول إن النهب مبالغ فيه كثيرًا، وفي الجيزة على الأقل الأمور أفضل دون وجود الشرطة، بعد أن سيطر المدنيون على النظام العام. الصبية الصغار والرجال الأكبر سنًا يديرون المرور في ميدان المحطة. (م) مسرور. (ج) تقول إن الوضع في إمبابة مماثل، الليلة السابقة كانت "مخيفة" مع وجود البلطجية في الشوارع، لكن يوم الأحد مر بسلام، كانت في مظاهرة في ميدان التحرير لكن عادت إلى البيت قبل مغيب الشمس خوفًا من اللصوص، وعلى حد قولها، كان الوضع آمنًا هذه المرة، وكان الأطفال يلعبون الكرة على الكورنيش لأن المرور خفيف جدًا. تخلص المتظاهرون من قمامتهم بأنفسهم، والشوارع نظيفة جدًا. أعلنت الشرطة عودتها إلى الشوارع، لكن –على حد قول (ج)– "إحنا مش محتاجين لهم". سافر صديق لي أوربي إلى القاهرة ليلة أمس على الخطوط الجوية التركية، وقررت أن أعلق قرار ذهابي من عدمه على قدرته على الخروج من جوازات المطار، فربما أعادوه من

حيث جاء. مر الأمر على خير كما قال لي في التليفون، وأكد أنه من السهل أيضًا العثور على تاكسي في المطار.

لكنني كنت ما زلت لم أقرر، ولم أكن قد وصلت إلى قرار نهائي حتى بعد أن ركبت القطار إلى المطار وتأكدت من أن طائرتي ستقلع، لكن قبل موعدها بنصف ساعة، فاضطررت إلى أن أسرع. اتصلت بدانييلا زوجتي، وقالت لي ألتزم الحذر، فاتخذت قراري: سأذهب لكن لأستلزم أبلغ الحذر. إن لم أكن في عجلة من أمري كنت لأبقى. لكن وجدت قدميّ تحملانني حملاً إلى الطائرة، وها أنا داخلها.

أنا لست الراكب الوحيد على متن الطائرة، لكن الجميع تقريبًا مصريون. الطائرة نصف ممتلئة، هناك ركاب أكثر ممن رأيت أمام البوابة أمس، لكن ليس عددًا كبيرًا. هذه هي أول رحلة لخطوط طيران لوفتهانزا إلى القاهرة منذ ٣ أيام. كما تعرفت على الكثير ممن رأيتهم على البوابة أمس. مجموعة متباينة جدًا. رجال أثرياء في أواسط العمر، أتخيل أنهم ربما كانوا رجال أعمال، بعضهم يبدون دبلوماسيين مصريين، من يعرف؟! الشباب الذين قابلتهم أمس موجودون جميعًا ومنهم الشابة الذاهبة إلى القاهرة للمشاركة في الثورة. رأيت رجلين عرفت من لحية كل منهما المشذَّبة أنهما إخوان مسلمون، أعتقد أنهما بدورهما ذاهبان إلى الثورة. يريد الجميع المشاركة في هذه الانتفاضة. لو نجحت نجاحًا كبيرًا، فالسؤال الأهم هو: "ما شكل النظام الجديد؟" على النقيض مما حدث أمام البوابة أمس، فلا أحد يتحدث في السياسة اليوم على متن الطائرة.

على الطائرة وجدت الكثير من الركاب على مقاعد الدرجة الأولى، إذن أثرياء مصر لا يهربون كما فعل البعض منهم على مدار الأيام الماضية، إذ احتشدوا في صالة

كبار الزوار في مطار القاهرة في انتظار الطائرات، على حد قول وسائل الإعلام الدولية.

الباقي ليس أكثر من توقعات وتخمينات وانتظار على كف التوتر. عندما أصل سأعرف المزيد.

مؤكد سأنسى العمل على كتبي وأبحاثي هذا الأسبوع، سأعمل فيما بعد.

***

فيما بعد، في مساء اليوم نفسه، في القاهرة.

لا أصدق، أنا سعيد بحضوري. الحال رائعة وأفضل بكثير مما توقعت. أنا في منتهى السعادة لأنني أشهد بنفسي على شيء كهذا.

أخذت تاكسي من مطار القاهرة مع (ل)، وهي فنانة مصرية تعيش في ألمانيا. قررَت العودة إلى مصر بعد أن اختفى شقيقها في مظاهرات الجمعة. منذ ذلك الحين وأمها تدور على المساجد والمستشفيات تبحث عنه، وأبوها منهار تمامًا. لم تتحدث عن الموضوع، لكن هناك احتمالاً كبيرًا أنه قُتل. وهي عائدة إلى مصر لتشارك في الثورة، ولتبحث عن شقيقها. لم تقل لأبويها إنها قادمة حتى لا يقلقا.

أخذ السائق منا أجرة مبالغًا فيها كثيرًا. لكننا كنا سعداء للوصول قبل أن يُبطئ حظر التجوال من حركة المرور (حظر التجوال غير مفروض بشكل صارم. بعد الثالثة عصرًا ينصب الجيش نقاط تفتيش في الشوارع يفتشون فيها بطاقات الركاب وما تحمله العربات ويسألونهم إلى أين يذهبون، لكن في العادة يتركون العربات تمر، وكانت العربات قليلة في الشوارع هذا المساء). كان سائق التاكسي على تماسٍ تامٍ مع الموقف،

لكن من فوق منصة ساخرة. عندما سألته (ل): "أنت شاركت في المظاهرات؟" قال: "هو أنا عبيط؟". يبدو أنه يرى المظاهرات مشروعة لكن من الغباء المشاركة فيها، وحذرها أيضًا من الخروج مساءً، بزعم أنه شاهد ليلة السبت حالة اغتصاب بالإضافة إلى أعمال النهب. لم تندهش أو تتأثر بكلامه.

المدينة كما رأيناها من التاكسي بدت أفضل حالاً مما توقعنا من مشاهد التلفزيون التي صورت المتاجر المحطمة والشوارع المليئة بالحطام. في الطريق رأينا ثلاث بنايات محترقة، قسم شرطة الأزبكية الذي أحرقه المتظاهرون، ومستشفى الجلاء الذي أحرقه اللصوص (من حسن الحظ أنه لم يُصب أحد داخله) ومقر الحزب الوطني الديمقراطي الذي رأيته هيكلاً أسود متفحمًا إلى جوار كوبري ٦ أكتوبر، أبلغ وأهم إشارة على كراهية الناس للنظام.

ترك التاكسي (ل) أمام بيتها في المهندسين، ومضيت أنا إلى الجيزة، حيث مشيت من الكورنيش إلى شارع المحطة. هنا، وللمرة الأولى، رأيت حطام المواجهات مع الأمن في الشارع، زجاج مهشم من مختلف الألوان وعبوات غاز مسيل للدموع، بالإضافة إلى هذا رأيت أن الشوارع قد نُظفت بحرص بعد التظاهرة (باستثناء عربات الشرطة المحترقة الواقفة في الميادين الكبرى في شتى أنحاء المدينة). رأيت أن الحال أنظف بكثير من الوضع الطبيعي في مصر، وكل هذا بسبب الجهود التطوعية. في المهندسين، رأيت من التاكسي ثلاث سيدات يبدو عليهن الثراء، ينظفن الشارع. في المهندسين أغلب المحلات مغلقة، لكن في شارع المحطة، في الجيزة القديمة، المحلات مفتوحة والشوارع عامرة بالناس. قابلت (ي) في الشارع، سرنا إلى البيت حيث تركت حقائبي سريعًا، وتحدثت قليلاً مع (ي) الذي أخبرني كيف كان يغطي مظاهرة الجيزة

(حيث شارك البرادعي) لصالح الجريدة التي يعمل بها. تعرض (ي) للضرب هناك، واضطر إلى الجري وصوّر الأحداث وهو يجري.

في الرابعة عصرًا، بعد ساعة من بدء حظر التجوال، ناديت على تاكسي من شارع المحطة ليأخذني إلى الجريدة التي يعمل فيها (م). كان السائق مترددًا في البداية لأن هناك نقطة تفتيش عسكرية عند جامعة القاهرة. لكن مررنا من النقطة بسلام. يفحصون الأوراق وينظرون في حقيبة السيارة، لكنهم يتركون الناس تمر، والأهم أنهم يتحدثون مع المواطنين بنبرة ودودة ومهذبة تختلف تمامًا عن أسلوب الشرطة الذي كثيرًا ما يهين المواطنين ويسيئ إليهم. وبعد ذلك أيضًا، ونحن عائدون من المظاهرة سيرًا على الأقدام فتشنا مرتين جنود قالوا لنا "احنا آسفين يا فندم" وفتشونا بتهذيب للتأكد من أننا غير مسلحين. وهو النقيض التام لأسلوب "يا ابن الشرموطة" الذي اعتاد المصريون سماعه من قوات الشرطة. لا عجب أن الجيش يحظى بشعبية كبيرة، ونجح نجاحًا واسعًا في فرض السلم والنظام أينما حل.

الجيش منتشر في جميع أرجاء المدينة. في كل ركن أو ميدان هام، في كل تقاطع أو مفرق، هناك دبابة واحدة على الأقل أو عربة مدرعة، أحيانًا اثنتان أو ثلاث. الجنود– شبان مجندون ربما لولا التجنيد لكانوا في صفوف المتظاهرين– يبدو عليهم الاسترخاء والهدوء، والناس تعاملهم بشكل ودود للغاية وباحترام. الكثير يُصورون أمام الدبابات، وفي ميدان التحرير الدبابات مغمورة برسوم جرافيتي ضد مبارك.

قابلت (م) في مكان عمله، وسرنا بالتاكسي في شوارع شبه خالية إلى كوبري ٦ أكتوبر لنمر إلى جوار مقر الحزب الوطني المحترق. أمسك (م) بعبوة بيبسي "كانز" مفلطحة وأهداها لي على سبيل التذكار. غسيل الوجه بالخل أو الكولا يساعد على

التخلص من آثار الغاز المسيل للدموع. قال (م): "قبل ما يقطعوا الإنترنت وصلتنا نصايح ممتازة من التونسيين على الفيس بوك عن إزاي نتعامل مع الغاز المسيل للدموع وأساليب قمع الشرطة التانية".

سرنا إلى ميدان التحرير فوجدنا المكان في حالة من السرور والسلام. على الكوبري رأيت شخصًا يطير طيارة بألوان علم مصر. مع مرورنا من اللجنة الشعبية، بعد الجيش والمتطوعين للوقوف في اللجان من المتظاهرين، حيث يُخرج الجميع بطاقاتهم من أجل منع الشرطة أو أمن الدولة من دخول المظاهرة لبث الاضطرابات، شيء عظيم. الحكومة المصرية طورت نظام البطاقات الشخصية حتى تصبح نافذة يسيرة لـ"رؤية" أي مواطن. البطاقة لا تُظهر فقط اسم الشخص وتاريخ ميلاده، بل أيضًا عنوانه وحالته الاجتماعية وديانته ومهنته. ومن المهنة يمكن معرفة رجال الشرطة في الملابس المدنية وضباط أمن الدولة.

المتظاهرون يسيطرون على ميدان التحرير منذ دخل الجيش ليلة الجمعة، ولم يغادروا. هذه أجواء عظيمة، شيء لم أره في مصر من قبل، ولم أكن لأتوقعه مطلقًا. الحال سرور وسلام، ولا توجد منصة مركزية لإلقاء الخطب، بل هناك عدد من المجموعات التي تجمعت عفويًا يرددون شعارات مرتجلة، وهي كالشعر باللغة العربية، وبعضها شعر حقيقي.

في تقديري هناك نحو ١٠ آلاف شخص في الميدان في أي لحظة، لكن بما أن الناس تروح وتجيئ، فيُرجح أن العدد أكبر بكثير على مدار اليوم. التجمع متباين التكوين، لكن النشطاء السياسيين أوضح وأبرز. هناك بلا شك الكثير من نشطاء اليسار، وناس من الشريحة العليا من الطبقة المتوسطة، وسلفيون وإخوان مسلمون،

والعديد منهم جاء بأسرته كاملة، وهم جميعًا يرددون شعارات ضد مبارك. الأسر السلفية باللحى والنقاب إلى جوار نشطاء اليسار والفنانين، إلى جوار المثقفين التقليديين، وفئات أخرى كثيرة. هناك مكان للجميع في هذه الثورة، وهناك نساء كثيرات جدًا، في سن الشباب ومسنات.

لا توجد مجموعة واحدة مهيمنة. التيارات الدينية قوية وملحوظة، لكن في الوقت نفسه هناك شعارات كثيرة تركز على وحدة المسلمين والمسيحيين بصفتهم جميعًا مصريين. الحضور القوي للإخوان المسلمين أشارت إليه (ل) بقلق ونحن نتحدث في الطائرة. هي لا تثق كثيرًا في الإخوان المسلمين، وتأمل أن يصبح المصريون أكثر علمانية بعض الشيء، لكن هذه هي طبيعة الثورات الشعبية والديمقراطية: فهي تأتي من الناس على حالهم، وليس مما يجب أن يكونوا عليه. لا شك عندي أن الحكومة الديمقراطية المصرية ستكون أكثر تدينًا، وأكثر تصادمًا مع إسرائيل. لكن أعتقد أن السؤال الأساسي ليس "من الذي سيحكم مصر؟" بل "كيف سيحكمها؟". واليوم أحسست بأمل كبير فيما يخص السؤال الأخير. التنظيم التلقائي للمصريين في التظاهرات وفي المناطق السكنية على حد سواء هو بالنسبة إليَّ أكبر دليل على أن المصريين قادرين على النهوض بالحُكم الديمقراطي. الحال يسر، مدهشة، وأشخاص كثيرون تحدثت معهم فخورون لأقصى حد. تُجمع القمامة بشكل دائم من المظاهرات والشوارع الرئيسية من قِبَل متطوعين، في بلد ممتلئ حتى الآن بالقمامة أينما وليت وجهك. الناس تحرس الشوارع بعد أن كانوا حتى وقت قريب جدًا يعتمدون على قوة الشرطة القاسية وغير الكفء. لو أمكن أن تستمر هذه اللحظة، وأن تتحول إلى حركة تفاعل دائمة، فسوف تتغير مصر تغيرًا كبيرًا.

قابلت في ميدان التحرير صديقي الأوربي الذي وصل هذا الصباح على متن خطوط الطيران التركية، وقابلت أيضًا (ك) الذي – كما يقول الآخرون جميعًا– لم يتوقع ما حدث. يقول إنه حتى في القرى الصغيرة في صعيد مصر أحرقت أقسام الشرطة وتولى الناس النظام العام، وعلى النقيض من مخاوف (ك) فلم يؤدِ هذا إلى توترات ومواجهات طائفية، بل على الأقل، للحظة، أدى إلى التعاون والوحدة. قلقه الوحيد هو أن يلجأ النظام إلى العنف الدموي، أقسى مما حدث يوم الجمعة، عندما يشعر أن الشعب يحاصره. (ي) بدوره أعرب عن هذا القلق، رغم أن الجميع مطمئنون وواثقون من صحة إعلان الجيش بأنه لن يستخدم القوة ضد المتظاهرين. لكن ما زال هناك الحرس الجمهوري.

في الميدان، التقيت ببعض الرجال، يبدو عليهم أنهم من الطبقة العاملة من مناطق شعبية، شاهدت على هواتفهم المحمولة مقاطع فيديو لتقدم المتظاهرين على كوبري قصر النيل يوم الجمعة، حيث أصيب رجل في وجهه بالذخيرة الحية ومات في لحظة. (م) يقول لي إنه كان في مظاهرة كبيرة يمرون بالزمالك عندما زاروا سفارة تونس زيارة تشريفية خاصة، لكن فيما بعد على الكوبري تعرضوا لهجوم عنيف جدًا من الشرطة، ورأى (م) رجلاً يموت متأثرًا برصاص الشرطة، وآخرين غيره مصابين.

انقطاع الإنترنت عن مصر مشكلة، القادرون على دفع مقابل استخدام خدمات الإنترنت الأجنبية على التليفونات المحمولة هم فقط القادرون على الدخول على الإنترنت– والناس تواجه صعوبات في الاطلاع على المعلومات، في غياب الإنترنت تلعب "الجزيرة" دورًا هامًا، وبعد ترددها في اليوم الأول للتظاهرات، انتقلت بشكل كامل إلى جانب المتظاهرين، وأصبحت المصدر الأهم للمعلومات الأساسية

عن مصر. بالأمس انقطع بث الجزيرة على النايل سات، فحوَّل المصريون أطباق استقبال القمر الصناعي إلى قمر صناعي آخر ليستمروا في مشاهدة الجزيرة. في ميدان التحرير ثلاث شاشات تلفزيون للناس لتشاهد القنوات، وهناك خيمة يجمع فيها بعض نشطاء اليسار مقاطع فيديو وصور. يقول (م) وهو يضحك إنه عندما انقطعت الجزيرة تحول ابنه إلى معارض للرئيس لأن مبارك قطع عنه قناة "كارتون نت وورك" التي لا يمكن مشاهدتها إلا على النايل سات.

غدًا المظاهرة الكبيرة، المليونية. مع مغادرتي أنا و(م) المظاهرة في طريق العودة إلى الجيزة سيرًا على الأقدام لانعدام التاكسيات أو الميكروباص، انضممنا إلى مجموعة من الناس كانت تتقدم ناحيتنا، تقودها امرأة ترتدي نقابًا ملونًا، برفقة امرأة أخرى ترتدي الجينز، مرسلة الشعر، تهتفان بصوت مرتفع: "الشعب.. يريد.. إسقاط الرئيس" انضممنا إليهم، وبدأ (م) يهتف بصوت جهوري (لم أعرف أن صوته بهذه القوة): بكرة الساعة تسعة، بكرة مليونية، مليونية بكرة الساعة تسعة، بكرة مظاهرة سلمية.

سرنا مسافة طويلة، عبر الدقي والجيزة. في الدقي رأيت بعض رجال الشرطة هنا وهناك، قوة الشرطة عادت إلى القاهرة ليلة أمس، لكن بأعداد صغيرة على ما يبدو، وما زالت تبدو على وجوههم الريبة المطلقة. الشوارع نظيفة تمامًا، لكن هنا وهناك عربات شرطة محترقة، في الجيزة على الأقل رأيت خمسًا أو ستًا منها متوقفة في طابور طويل.

الشيء المدهش حقًا هو أن لا أحد توقع ما حدث. قبل أسبوعين سألني أحدهم إن كانت مصر ستتعرض لثورة مثل تونس، فقلت لا، ربما تثور اليمن بعد

تونس، لكن لن تحدث ثورة في مصر. كم كنت مخطئًا! (م) يقول إنه بدوره لم يتخيل هذا؛ يوم الثلاثاء لم يرغب حتى في الانضمام إلى المظاهرات، إذ كان يظن أن لا فائدة. لكن سرعان ما غيَّر رأيه. سرنا إلى الجيزة مع شاب من الجيزة القديمة كان متحمسًا للغاية للوضع الجديد. يقول لي إنه لم يصدق أن المظاهرات ستنجح يوم الثلاثاء، ذهب إليها وهو يظن أن الناس لن تنضم. وصف الإحساس: "من كام يوم كنت حاسس إني عايش في كابوس، وفجأة بقيت قادر أحلم بكل حرية". وقال (م): "في حاجات كتير بقت ممكنة كان عمري ما أتخيلها. بقينا فجأة قادرين يكون لنا تأثير".

هذه لحظة ثورية، نفس "الحالة العاطفية" التي وصفتها (ل) عندما تحدثت معها على الطائرة إلى القاهرة. المصريون يعيشون منذ زمن طويل في ظل الإحساس بالقمع، إحساس بالإحباط والضغط شديد، كم كرهوا النظام! لكن كانوا يشعرون أن ليس بوسعهم شيء معه. التفوا على النظام، إذ أصبحوا فوضويين وكسالى، محوِّلين النظام بحيث يتماشى مع غاياتهم، لكن تحولت هذه الأعمال إلى جزء لا ينفصل من النظام، فأصبح النظام يحتوي على قدر هائل من الإحباط والمعاناة من النظام الفاسد، وفي الوقت نفسه هم جزء منه. فجأة تفتح الثورة في تونس الباب أمام الاحتمالات، ويصبح رفض النظام شيئًا منطقيًا، وخيارًا قائمًا. وفي ليلة واحدة، تتغير مصر.

سوف يُظهر المستقبل كم هو ناجح وعميق هذا التغيير، فليس الجميع متوحدين في حالة الحماس الشديد هذه، وبعض مشكلات مصر لا تُحل بتغيير الحكومات، لكن مجرد وجود هذه الثقة في احتمال أن يفعل المرء شيئًا فيُحدِث فارقًا،

كان كافيًا لملء الميدان بالمتظاهرين، وإحراق أقسام الشرطة المعروفة بتعذيب السجناء، وتنظيف الشوارع بعد ذلك ووضع نهاية سريعة لأعمال النهب.

لكن ليس الجميع في هذه الحالة من الحماس العالي. قابلت أيضًا أشخاصًا إما كانوا متعقلين في طلباتهم، وإما متشككين في إمكانية التخلص من مبارك والنظام. البائع في محل المحمول حيث اشتريت كارت محمول قال: "مش ده اللي طلبناه؟ تعيين حكومة جديدة؟" قال أحد الزبائن: "لا، عايزين أكتر. لازم يرحل. بكرة هنروح المليونية" وفي الليل وقفنا قليلاً في ميدان الجيزة، تحدثت إلى رجل يلوم الحكومة كل اللوم على أعمال النهب والفوضى ويُعرِب عن كراهيته للنظام، لكنه ما زال يعتقد أن مبارك لن يرحل، وأنه باقٍ مهما فعل الشعب: "دي أسوأ حالة ممكنة. دلوقت مصريين بيقتلوا مصريين، ونفتش بعضنا في اللجان الشعبية، دي عيشة دي؟"

بعد السير طويلاً بلغنا الجيزة القديمة، وذهبنا لشراء خضروات من المحل الذي يفتح حتى الساعة ٧:٣٠ مساءً، في حماية مجموعات من الرجال تحرس الشوارع والمتاجر بالسلاح الأبيض والعصي، نفس المشهد تراه في كل أنحاء المدينة. ونحن نشتري الفاصوليا والمكرونة من المحل، رأينا نساء يصرخن وهنّ يمررن إلى جوارنا في الحارة، يجري وراءهن شبان في سن المراهقة يحملون العصي والسكاكين في أيديهم. رأوا بلطجية، حالة فوضى، والشبان في سن المراهقة على وشك الجري وراءهم، فخرج رجال كبار وقالوا: "متجروش كلكم في نفس الاتجاه يا أغبيا، يفضل نصّكم هنا على أول الشارع م الناحية التانية" عادت النساء وقلن إن أحد اللصوص هرب، والآخر أمسكوه. لكن ليس من الواضح تمامًا حقيقة ما حدث. يقول بائع الخضار: "كان

في هنا بلطجية وحرامية من أول ليلة، بس دايمًا يطلع الموضوع على مفيش. الناس تشوف واحد بيجري تقول لك حرامي، يقوم كله يزعق ويجري وراه".

وصلنا البيت، حيانا ابن (م) بحماس وهو يهتف: "الشعب.. يريد.. إسقاط الرئيس". أتحدث مع (ي) عن مشاركته في مظاهرات الجمعة، مظاهرته الأولى:

"إحساس الكرامة يوم الجمعة شيء نفسي أكتب عنه عشان يعرفه كل الناس، لكن ما كانش فيه إنترنت. كان أول يوم في حياتي أحس إني إنسان فعلاً. صحيت من النوم، فطرت، صليت، خرجت للمظاهرة قلت لا، رغم إني انضربت، اتصلت بحبيبتي، ورجعت البيت ونمت. كان أول يوم في حياتي أحس إني مش ناقصني حاجة".

في المساء ونحن نأكل جالسين أمام الجزيرة، توالت الأخبار الهامة سريعًا. في البداية أعلن الجيش أنه يقر بمشروعية مطالب المظاهرات وأنه لن يستخدم القوة ضد المتظاهرين السلميين. بعد ساعة أعلن عمر سليمان حل البرلمان وإجراء انتخابات جديدة وأن الرئيس أعطاه سلطة التفاوض مع جميع القوى السياسية. بعد هذه الأخبار أصبح المذيع على القناة الأولى متوترًا للغاية، انقطع اتصال من صحافي في الأهرام بعدما قال الصحافي إن هذا معناه انتهاء مشروع التوريث نهاية تامة. ترى بعينيك كيف يزداد الضغط على النظام، والجدير بالملاحظة أن هذا يحدث عادة في المساء.

الثلاثاء ١ فبراير ٢٠١١

"كدة أكتر من أي شيء كان ممكن أحلم به"

في بيت (م) مساءً، في حالة من الإرهاق التام، في انتظار كلمة مبارك. عدنا منذ ساعة من أكبر مظاهرة في تاريخ مصر حتى الآن [*ملحوظة لاحقة: كانت ثاني أكبر مظاهرة، فالأولى كانت جمعة الغضب في ٢٨ يناير لكن لم أكن أعرف بهذا وقت كتابة هذه السطور*]. ميدان التحرير امتلأ عن آخره، لدرجة أن الناس لم تتمكن كلها من الوصول إلى الميدان، وامتدت المظاهرة إلى الكثير من شوارع وسط البلد. الأخبار تتردد عن مليون إلى مليوني شخص، العدد الحقيقي مسألة تخمين في الواقع، لكن على كل حال كانوا كثيرين لدرجة لا أتخيلها أو يتخيلها غيري في أبعد أحلامنا.

كان اليوم من أعظم ما شاهدت في حياتي. يوم سلمي تمامًا، منظم تنظيمًا تامًا على يد متطوعين ظهروا تلقائيًا، تولوا أمر النظام والأمن والنظافة. الناس تصرفت بشكل سلمي ومسؤول تمامًا، وهناك إحساس رائع بالكرامة والقوة. أيًا كان ما سيحدث بعد ذلك فهو قطعًا سيكون أقل من توقعات اليوم (لأن الناس في المظاهرة كانوا يعتنقون آراء سياسية متباينة لأبعد حد، ولأن الواقع أقل دائمًا من اللحظة الثورية)، لكن أيًا كان النظام السياسي، وبغض النظر عن حكومة مصر القادمة، فسوف تواجه مواطنين اشتركوا في تجربة الخروج للإتيان بالواقع الذي لم يتخيله أحد. هذا ما علمني إياه ذلك اليوم، ومعي الملايين من المتظاهرين المصريين في القاهرة والمدن الكبرى في شتى أنحاء مصر، وكذلك أسرهم وأصدقاؤهم الذين سيخبرونهم

الليلة بما شاهدوه، لحظة ثقة الشعب في نفسه والقدرة على تجاوز حدود الممكن إلى آفاق ربما لم يتخيلها أحد يومًا. قال لي (ف. ي.) الذي قابلته في ميدان طلعت حرب: "كده أكتر من أي شيء كان ممكن أحلم به"، وهو ناشط شيوعي قديم لديه أحلام متجاوزة. يا للفخر! ويا للتصميم! ويا للإحساس بالكرامة! إحساس رهيب بالقوة، وفرحة غالبة على اليوم في قلب القاهرة، لدرجة أنني غير قادر على الكتابة عن أحداث اليوم دون أن تغلبني المشاعر. ليست هذه بلحظة التحليل العلمي البعيد عن التحيز.

(بينما أكتب، نحن ننتظر في قلق الكلمة المعلن أن مبارك سيلقيها. التوقع هو أنه إما سيقول إنه لن يترشح في الانتخابات القادمة، مما يعني خروج مظاهرة كبرى جديدة الجمعة القادمة، أو إنه سيستقيل. غيرنا القناة إلى التلفزيون المصري، حيث كانوا يعرضون مشاهد لمجموعة صغيرة من الناس يحملون لافتة عليها "نعم لمبارك" ويزعمون أن عدد المؤيدين لمبارك في الإسكندرية تجاوز ٢ مليون. لا عجب أن كل من كانوا في المظاهرة راحوا يتصلون بالبيت ويقولون إن الوضع مختلف تمامًا عن ما يعرضونه على شاشات التلفزيون).

والآن، إلى أحداث اليوم:

نهضت مبكرًا وخرجت مع (ي) وذهبنا لنأخذ صديقته (أ) معنا، من ضاحية في جنوب القاهرة حيث تقيم. كانت ذاهبة إلى المظاهرة بعد موافقة أمها بصعوبة، وضد رغبة شقيقها ودون أن تسأل والدها. لكنها وعدت بأن تعود قبل حظر التجوال، من ثَم (ي) مسؤول عن أخذها وإعادتها إلى البيت. في المترو كان الناس قليلين، أغلبهم رجال تجاوزوا الأربعين. الشباب والنساء قليلون للغاية. جميع الرجال

تقريبًا يتكلمون عن المليونية. لا يوجد موضوع آخر للنقاش، وتتطور المناقشات التلقائية بين الركاب. آراؤهم مختلفة، بعضهم يعتبرون المظاهرة غير ضرورية، أو خطيرة، وهناك آخرون يدعمونها، لكن الجميع تقريبًا (باستثناء شخص يبدو أنه من الحزب الوطني) اتفقوا على أن مبارك ونظامه فاسدون ولا بد أن يرحل. سرنا عبر حي سكني في إحدى الضواحي، مثل جميع أحياء القاهرة، تحرسه اللجان الشعبية، إذ يقف الناس على نواصي الشوارع، بعد أن وضعوا حجارة كبيرة في وسط الطريق وحواجز لمنع أي سيارات مسرعة من العبور دون فحصها أولاً. في الطريق اشتريت الجرائد. بائع الصحف ليس لديه تقريبًا إلا الصحف المستقلة أو المعارضة: الشروق والوفد والمصري اليوم واليوم السابع، هي تقريبًا الصحف التي يقرؤها الناس.

أخذنا (أ)، وكانت مجهزة بعلم مصر والكثير من الحماس والتصميم. عدنا بالمترو لكنه لا يتوقف في التحرير، وخرجنا في محطة جمال عبد الناصر وسرنا إلى الميدان. رأينا بداية لطوابير طويلة من الناس تسير إلى التحرير، والشمس مشرقة والصباح جميل. في شارع رمسيس رأينا عربات شرطة محترقة وجرافيتي مثل "يسقط الطاغية" بالاسبراي. مع اقترابنا من التحرير رأيت الأعداد تزيد، سرنا إلى شارع شمبليون حيث المقاهي مفتوحة ممتلئة بالمتظاهرين الذين لجؤوا إليها للراحة.

عند مدخل التحرير كان علينا مجددًا أن نُظهر بطاقاتنا وأن نُفَتَّش بحثًا عن أسلحة. هناك صف من المتطوعات لتفتيش السيدات. وهناك عدة خطوط من الأفراد واقفين، والجميع في غاية التهذيب، يقولون "آسفين" و"أنا آسف" والجميع سعداء من هذا الإجراء التأميني. يشعرون أنه إسهام هام لأمنهم (وإجراء ضروري، خصوصًا إذا كان تقرير الجزيرة صحيحًا، والذي صدر مساء اليوم عن توقيف سيارة محملة

بالأسلحة الآلية عند إحدى لجان التفتيش). وحيث يوجد الجيش، فهو يؤدي جزءًا من مهمة التفتيش، لكن في الأغلب يدير المتطوعون الأمور. ومع تزايد عدد المتظاهرين مع مرور الساعات، ظهرت نقاط تفتيش جديدة في الشوارع، إلى ما بعد ميدان طلعت حرب، إذ شكَّل بعض الرجال سلاسل بشرية لإرشاد الناس إلى نقاط التفتيش. رغم أن هناك تقريبًا أكثر من مليون شخص (وهو محض تقدير، لا أحد يعلم) في وسط البلد، مرت إجراءات التفتيش بسلام على مدار اليوم والمساء.

وصلنا إلى ميدان التحرير الساعة ١١ صباحًا تقريبًا، وكان بالفعل قد أصبح أكثر امتلاءً من الأمس. على مدار الساعات الثلاث التالية أصبح ممتلئًا بالناس لدرجة أنه أصبح من الصعب التحرك في هذا الميدان الكبير. رحنا نتوقف ونشاهد ونردد الشعارات مع الحشود، والتقطت صورًا كثيرة، وسألني الكثير من المصريين عن رأيي، وقلت لهم رأيي وأضفت إنني هنا للتظاهر ضد الحكومات الأوربية التي تدعم المستبدين وهي تتحدث عن الديمقراطية. (ي) يأمل أن يتفق الناس على ترديد شعار واحد، لكن هذا مستحيل بسبب حجم المظاهرة الكبير. رأيت مرتين مناقشات حامية بين المتظاهرين حول مسألة الشعارات. فيما بعد قال لي صديقي الأوربي إن ليلة الأمس شهدت بعض الخلاف حول نفس الموضوع. اتفقت كل المجموعات على الكف عن ترديد أي شعارات تخص أحزابًا أو حركات بعينها، لكن أحيانًا يفعل البعض خلاف ذلك.

لمدة نصف ساعة، راح (ي) يجمع القمامة، وكان يؤدي عمله بتصميم وإخلاص شديدين. ثم غادر (ي) و(أ) مبكرًا كي يعود بها إلى البيت. مشيت باتجاه شارع طلعت حرب على الرصيف المنفصل عن الميدان بسور. الأسوار حول الميدان

تخلق حالة من الزحام، كعنق الزجاجة، وتزدحم جدًا في لحظات، تزدحم لدرجة القلق على عدد الناس الذين يمكن أن يحتملهم الميدان. وقفت للحظة إلى جوار مدرعة متوقفة عند مدخل شارع طلعت حرب، ثم سرت في شارع طلعت حرب، حيث ظهرت شائعة لفترة وجيزة بأن مبارك تنحى، لكن سرعان ما نُفيت. قابلت صديقي الأوربي، ورحنا نطوف بالميدان ثم عدنا إلى السير في شوارع وسط البلد، وشربنا القهوة وقابلنا في الطريق عدة أصدقاء. لقاءات سارة في أجواء استثنائية من الأمل.

أخيرًا قابلت (م) مرة أخرى، كان قد اضطر إلى العمل في الصباح، ووصل إلى المظاهرة بعد الظهر. كان مرهقًا للغاية. ذهبنا معًا إلى شقة أصدقاء في وسط البلد لدخول الحمام، ومكثنا هناك لبعض الوقت، جو مُرحِّب ودافئ. لكن سرعان ما تحركنا إلى البيت في الجيزة، متوقعين أننا سنضطر إلى العودة سيرًا على الأقدام. لكن – لحسن الحظ– ركبنا مع رجل معه زوجته وبناته، يكسب بعض النقود من توصيل الركاب. أجواء طيبة، والجميع مسرورون وفخورون بحسن أخلاق وتهذيب اللجان الشعبية.

هذه أكثر من ثورة على الفيس بوك أو تويتر، هذه ثورة الهواتف المحمولة. طوال النهار الناس تتكلم على هواتفها المحمولة في المظاهرة، يخبرون أصدقاءهم وأقاربهم أن الموقف على عكس ما يبثه التلفزيون المصري تمامًا (بعد الظهر حاولوا على ما يبدو إخافة الناس بتحذيرهم من مصادمات وأعمال نهب جديدة)، مؤكدين أن المظاهرة ضخمة جدًا وسلمية. الحكومة تحاول تضليل المواطنين بكل السبل المتاحة. الإنترنت محجوب منذ الجمعة. الجزيرة تكرر حجبها عن النايل سات واليوم حُجبت أيضًا عن العرب سات. التلفزيون المصري الحكومي يدير حملة تضليل قوية.

فيما أكتب، تحدث مبارك على التلفزيون. لن يترشح لفترة رئاسة جديدة، لكنه باقٍ ولم يقدم أي تنازلات حقيقية، بل على النقيض، فهو يعد بتعديلات دستورية، يجريها البرلمان الحالي، ويقول إن البرلمان لن يُحل إلا بعد أن تقرر المحاكم وجوب إجراء انتخابات جديدة على المقاعد المخصصة للانتخاب (٤٠٠ مقعد من ٤٢٠ مقعدًا – وهو نفس ما وعد به عمر سليمان بالأمس، بل حتى أقل). ويقول إن كل المسؤولين عن أعمال النهب والتسبب في أعمال الفوضى سيخضعون لمساءلة القانون. تفسير (م) للخطاب: إن لم يرحل يوم الجمعة فسوف تراق دماؤنا، وكل من شارك في المظاهرة سيُضطهد. يقول: "كده يبقى الجمعة" مشيرًا إلى مظاهرة الجمعة القادمة الكبيرة ضد مبارك. في الواقع، ما قاله مبارك يشبه كثيرًا ما طلبه جون كيري في مجلس الشيوخ الأمريكي قبل ساعة أو نحو ذلك. يبدو أنه يتحرك تحت ضغوط خارجية، لكنه لا يتخذ أي خطوة أبعد مما يراه ضروريًا.

(م) غاضب جدًا. الانتظار في توتر تحول إلى غضب عارم، وسوف ينضم إلى المظاهرة الآن، فورًا. (ي) كان ليذهب بدوره لو كان بوسعه، لكنه سيبقى لرعاية ابن (م) وأمه. الجزيرة تُظهر مشاهد للناس في التحرير يهتفون بقوة ضد مبارك. سوف يستمر الأمر. وربما لن ينتظر حتى الجمعة القادمة.

(م) خرج من الباب ليعود إلى التحرير منذ لحظة. (ي) وأمهما وابن (م) وأنا بقينا نشاهد التلفزيون. ماذا يحمل الغد؟ هذه لحظة فاصلة. لكن سأعرف بعد أن أنام قليلاً.

الأربعاء ٢ فبراير ٢٠١١

ليلة سوداء

أكتب الآن في شقة صديق اضطررنا إلى اللجوء إليها مع تزايد عدوانية بلطجية مبارك في شوارع وسط البلد هذا العصر. التالي تقرير بأحداث اليوم الذي بدأ حائرًا، وسط أجواء متفائلة، لكن تحول إلى العنف بسبب عصابات من تشكيل وتنظيم الحكومة. وهناك أدلة.

مع خروجي من شقة صديقي في الجيزة، رأيت الناس في شتى أنحاء المدينة مرة أخرى، يتناقشون ويتجادلون في حماس، بعضهم يؤيِّد المظاهرات بقوة أو على الأقل هم ضد مبارك، وبعضهم ضد المتظاهرين ويؤيدون مبارك، وكثيرون أيضًا يرون أن مبارك أظهر روح المسؤولية بكلمته ليلة أمس. لكن مع اقترابي من ميدان التحرير، رأيت أيضًا أن هناك بعض الكراهية الحقيقية، تشمُّها في الهواء، الرجال في منطقة ورش شارع شامبليون يقطعون الطريق على أسرة متجهة إلى التحرير، ويقولون لهم إن المكان غير مناسب للنساء، وأن ما يحدث عار. أحد أبناء المنطقة استاء كثيرًا، فقد نُهِب محله، على حد قوله، وسرعان ما بدأت حالة نقاش ساخنة، لعله شجار، مع إطلاق اتهامات "حرامية" و"مخبر" من هنا وهناك. الناس في منطقة الورش بدؤوا في المعاناة بشدة من أعمال النهب، والمعاناة الأكبر كانت من حظر التجوال، وبدؤوا في لوم المتظاهرين المطالبين بالديمقراطية.

مع وصولي إلى الميدان، وجدت مظاهرة صغيرة، لكن صاخبة، مؤيدة لمبارك، تحاول دخول الميدان، لكنها مُنعت من الدخول. في الميدان ما زال هناك عدد كبير من الناس، أكثر من يوم الاثنين، لكن بالطبع أقل من مظاهرة الأمس الكبيرة. الأجواء في الميدان تتسم بالتوتر والعصبية عن الأمس، الذي كان أشبه ما يكون بكرنفال شعبي كبير، لكن المتظاهرين بدؤوا يتوافدون، وبدأ الميدان يمتلئ ببطء في يوم جديد من المظاهرات السلمية المطالبة بتنحي مبارك.

مع خروجي من الميدان باتجاه وسط البلد صادفت أجواءً مختلفة، لا توجد مظاهرات مؤيدة للديمقراطية هنا، فتحت بعض المحلات والناس في الشوارع كثيرة. مع بلوغي شارع ٢٦ يوليو، أحد شوارع القاهرة الأهم، قابلت المزيد من المتظاهرين المؤيدين لمبارك، قوامهم ناس فوق عربات نصف نقل يغنون "مش هيمشي" (على عكس شعار المتظاهرين: مش هنمشي، هو يمشي). في البداية كانوا مجموعات صغيرة، لكن بعد قليل تجمَّع مشاركون انضموا إليهم تلقائيًا، وعلى مدار ساعة واحدة تحولوا إلى مسيرات كبيرة تطوف الشوارع. راحت أتوبيسات وسيارات كثيرة تطلق نفيرها وراح الناس يلوحون بعلم مصر، ثم فجأة وجدت إحساسًا بالحماس والارتياح في أوساط الناس في الشارع. بعضهم جاؤوا لإظهار مساندتهم لمبارك، لكن هناك آخرين مختلفين عن هذه الفئة: هم السعداء لأن مبارك وعد بعدم الترشح لفترة جديدة وكانوا على ثقة من أن الديمقراطية قادمة ومعها الانتخابات البرلمانية. ظنوا أن مبارك سمع صوت الشعب، وأنه لن يرحل فورًا، لكن ستكون هناك مرحلة انتقالية منظمة، وأن على الناس أن يكفوا عن التظاهر وأن يعود الناس إلى العمل.

لو كان هذا الإحساس قد انتشر وساد، ولو كانت مظاهرات تأييد مبارك قد تطورت ونمت بالشكل الذي تمناه الناس الذين تحدثت إليهم، فربما كان هذا اليوم ليتحول إلى نقطة بداية لعملية انتقال ديمقراطي يتطلع إليها الكثير من المتظاهرين المؤيدين لمبارك، لكن للأسف، كان لدى الحكومة المصرية خطط أخرى، على شاكلة ما توقعه وتنبأ به بعض أصدقائي. في أثناء وقوفي على ناصية الشارع، جاء رجل ومعه ابنه الصغير قادمين من التحرير. سألني ما الذي يحدث، وقلت إن خوفي الوحيد أن يتحول الموضوع إلى العنف ضد المتظاهرين المؤيدين للديمقراطية. قال: "ده اللي هيحصل"، ودار على عقبيه قائلاً إنه عائد إلى ميدان التحرير.

كان من الواضح أن المظاهرات المؤيدة لمبارك منظمة من قِبَل الحكومة، فهناك عربات نصف نقل عليها مكبرات صوت وصور لمبارك تدور في الشوارع، وتوزع أوراقًا صغيرة منسوخة بآلة تصوير عليها "نعم لمبارك، ولا للتخريب". ورغم ذلك ربحت هذه المظاهرات تأييدًا شعبيًا صادقًا وهناك كثيرون انضموا إلى المسيرة المؤيدة لمبارك بشكل عفوي وطبيعي. لكن من تحدثت إليهم كانوا مسالمين بشكل واضح، وخرجوا للتظاهر رغبة في عودة حالة السلم، وكان من الواضح أنهم لا يعتزمون مهاجمة المتظاهرين المعارضين للحكومة. لكن ونحن نسير في شارع طلعت حرب إلى التحرير، وجدت المتظاهرين أكثر عدوانية وأكثر تنظيمًا من الحشد الذي انضم عفويًا إلى المسيرات القريبة في المهندسين وعند ماسبيرو حيث الحشد الأساسي المؤيد لمبارك. وعلى النقيض من الناس في شارع ٢٦ يوليو الذين انضموا بسعادة وحماس إلى مناقشات في الشارع وكانوا ينظرون إليَّ بترحاب، فالناس المتجمعة في الشوارع المؤدية إلى ميدان التحرير كانوا عدوانيين معي، خصوصًا مع صديقي، وهو أجنبي مثلي، وحاولت

التقاط صور لهم فقال لي رجال من وسط الحشد على الفور لا أصوّر وإلا كسروا الكاميرا.

عند تقاطع البستان مع طلعت حرب رأيت مواجهة متوترة بين المتظاهرين المؤيدين للديمقراطية الواقفين في درع بشري، والناس أنصار مبارك، الذين راحوا يتراجعون ويتقدمون، وحالتهم المزاجية تتحول إلى الغضب أكثر وأكثر. واحد منهم بدأ يقول لي إن الناس في الميدان يأخذون النقود مقابل الوجود هناك، وإلا كيف نظموا عملية التفتيش على البطاقات وكيف توفر لهم الطعام طوال هذه الأيام. عندما قلت له: "خليها سلمية بس أرجوك" كان رده: "هم اللي مش عايزينها سلمية". وصل رجل على متن موتوسيكل ومعه زجاجات الماء والعصير للمتظاهرين في الداخل. مع محاولته الدخول عبر الدرع البشري، أمسك متظاهرون مؤيدون لمبارك الصناديق واندفع الجميع نحو الماء والعصير، في سلوك أشبه بسلوك المتسولين، كما كنت أرى في الجوامع الكبرى، وصاح أحدهم: "المياه دي بتاعتنا"، وراح الناس يتدافعون للحصول على جزء من الغنيمة. حدث هذا وسط حالة من التوتر وضبط النفس من طرف المتظاهرين المؤيدين للديمقراطية. رأيت حالة عدائية للغاية تتشكل، فقررنا الابتعاد. أخذنا صديقًا لنا من باب اللوق وسرنا إلى شقة صديق وسط مجموعات صاخبة تسير في الشوارع وتردد شعارات مؤيدة لمبارك. ومن العجيب أن وسط كل ما يحدث، وجدنا المقاهي في شارع البورصة ممتلئة بالناس.

بعد وصولنا إلى شقة صديقنا بقليل، بدأت الحالة تتدهور، وعَلَت الهتافات والصراخ. سمعنا صوت أعيرة نارية، ومن الشرفة رأينا جزءًا من مجموعة من الناس أمسكوا بشخص ما وألقوا به بغلظة لوحدة خاصة تابعة للجيش تقوم بحماية القنصلية

الفرنسية في وسط البلد. رأيت مواجهة دامت مدة طويلة بين المؤيدين لمبارك الذين حاولوا تجاوز خطوط الجيش لكن لم يدخلوا. اعترانا الخوف مع تزايد الصخب والفوضى في الشوارع، وراح صاحب البيت يقول للجميع بأن يطفئوا الأنوار. ها نحن جالسون في الظلام، ونور المطبخ هو النور الوحيد المضاء. لا يمكن النزول إلى الشارع. في بعض الأحيان نسمع أصواتًا صاخبة لأشياء تتكسر أو يُرمى بها على الأرض مصحوبة بترديد شعارات مؤيدي مبارك وأصوات أعيرة نارية. ثم ها هو الوضع يهدأ مرة أخرى، ثم نسمع طلقًا ناريًا من اتجاه ميدان التحرير. أصدقاؤنا هناك يقولون لنا على التليفون إن الوضع داخل الميدان أفضل بكثير مما يبدو على شاشات التلفزيون، ونحن نشاهد الجزيرة مباشر على الإنترنت، لكن حيث كنا، في الشقة، فالوضع متوتر وعنيف جدًا، نسمع مهاجمة بلطجية مبارك لعدة صحافيين أجانب على مدار اليوم والليلة. ورغم أن الناس في الميدان بحاجة ماسة إلى الدواء والطعام، ومعنا منه هنا، فمن الواضح خروج اثنين من الأجانب الآن محفوف بالمخاطر.

لا يمكن التنبؤ من هنا بما سيحدث اليوم. لا شك أن الحكومة ستلوم حركة المطالبة بالديمقراطية على ما حدث. السؤال هو: هل سيصدق المصريون؟ هناك صديق من الكيت كات على الجانب الآخر من النيل حيث الوضع أهدأ، تحدثت إليه على الهاتف، وقال إن الناس في منطقته حتى الآن مؤيدون لمبارك، لكن شعروا بالقرف مما يحدث اليوم. يبدو أن المصريين منقسمون جدًا اليوم، ولا يمكن التنبؤ بما سيحدث. على مدار الأسبوعين الماضيين كان كل تنبؤ مني حول الوضع خاطئًا، مثلما لم أتنبأ بأن المظاهرات ستصبح كبيرة، فلم أتوقع أن تتحول أحداث اليوم إلى المسار الذي تحولت إليه. الشيء الوحيد المؤكد في هذا الموقف الآن هو أن مبارك

والنخبة الحاكمة ليسوا جادين في الانتقال المنظم للديمقراطية، ويلجؤون من جديد إلى أساليب التهديد والفوضى. يا لها من طريقة مرعبة ومجرمة لحُكم دولة!

(ملحوظة أدونها فيما بعد: كانت ليلة مليئة بالشك والبارانويا، لدرجة أنني لم أذكر بعض أحداث تلك الليلة في مذكراتي هذه التي رفعتها على مدونتي في نفس المساء. تلك الليلة، بدا وكأن الثورة ستُجهض وتُسحق، وكنا نخشى نحن وجميع من هم في الشقة أن يُقبض علينا في الصباح التالي. في أثناء تلك الأيام، كانت الشقة التي نقيم فيها تضم مجموعة من الثوار كلهم تقريبًا من المشهد الفني اليساري. الآخرون في الشقة كانوا في ميدان التحرير تلك الليلة، ولم يكن فيها غير (ع) وصديقي الأوربي وأنا، وغادر (ع) بعد ذلك لقضاء الليلة في الميدان بدوره. أحسسنا بقلة الحيلة، ماذا نفعل؟ فبدأنا نطهو الطعام. سألني صديقي الأوربي: "هل نجهز الطعام لنا أم لهم؟"، "لهم" يقصد بها الناس في ميدان التحرير. قررنا أن نطبخ لهم، وطوال الليل، استخدمنا كل الطعام المتوفر في المطبخ تقريبًا. النتيجة كانت صحنًا كبيرًا من المكرونة بالصلصة، وطبقًا آخر من الأرز بالتونة والبطاطس. تمكن (ع) مرتين من توصيل الطعام للناس في الميدان، مرة في المساء، ومرة أخرى في الصباح الباكر. قدر الناس في الميدان هذا المجهود كثيرًا، وفي اليوم التالي اشترينا المزيد من الطعام وطهونا من جديد، لكن هذه المرة أعاد رجال يحتلون حاجزًا في شارع بوسط البلد أصحابًا لنا كانوا في طريقهم إلى الميدان ومعهم أكياس سندوتشات. وراح الكثيرون غيرنا يطهون للمتظاهرين في مختلف أنحاء القاهرة، وخُدِّم على اعتصام التحرير بالطعام والدواء لمدة زادت عن الأسبوعين بالجهود الجماعية للناس، كل منهم قدم القليل. كان نظامًا غير فعَّال بالطبع، وأحيانًا كان الأكل في الميدان قليلاً، وفي أحيان أخرى كان كثيرًا جدًا).

الخميس ٣ فبراير ٢٠١١

يوم من التوتر والانتظار

مع اقتراب المساء ها نحن نجلس في الشقة من جديد. صباح اليوم بدأ سلميًا لكن في حالة من التوتر، وكان هناك الكثيرون في شوارع وسط البلد، وكان بالإمكان التحرك بحرية وزيارة ميدان التحرير. لكن في فترة ما بعد الظهر انتشر بلطجية الحكومة في شوارع وسط البلد في جماعات صغيرة لكن عدائية، واضطر أصدقاء لنا إلى العودة بعد أن حاولوا الذهاب إلى الميدان بعد الظهر. الكثير منهم تمكنوا من بلوغ الميدان عن طريق شوارع أخرى، وهناك عدد من الناس في الشارع الآن يحاولون الوصول إلى التحرير، أدرك هذا من صيحات أسمعها على بُعْد شوارع قليلة، ونعتقد أن هناك مواجهات دائرة. نسمع صوت الرصاص بشكل متباعد. ومن المكالمات التليفونية عرفت أن في ميدان التحرير الآن عددًا أكبر من أعداد الأمس.

ها أنا ذا جالسًا غير قادر على شيء أحاول تخمين طبيعة الموقف في الشارع، هو أسوأ إحساس يمكن أن تشعر به. أشعر أنني لا بد أن أكون في الميدان إذا لم يكن لدي ما أفعله هنا. لكن فيما أكتب هذه الكلمات ورد على قناة "بي بي سي" أن المتظاهرين تمكنوا من إبعاد مؤيدي مبارك من الشوارع المؤدية إلى الميدان. الأصدقاء من مختلف أنحاء المدينة مصمون على الوصول إلى ميدان التحرير، ويبدو أن الكثيرين منهم نجحوا. حالتنا المعنوية بعد أن كانت قد بلغت الحضيض قبل ساعة، علت من جديد. قال صديق: ميدان التحرير هو المكان الوحيد اللي بأحس فيه بالأمان.

ليلة أمس كانت ليلة سوداء ودراماتيكية، وأنا أفكر فيها الآن، من المدهش أن المتظاهرين نجحوا في التصدي للبلطجية على مدار ساعات الليل.

في الصباح عاد بعض أصحابنا من الميدان، مرهقين وفي حاجة ماسة إلى النوم. أحدهم قضى الليل بطوله يساعد في نقل المصابين من الخطوط الأولى للمستشفى. كانت يداه ملطخة بالدم الجاف. فيما ناموا، خرجت أنا وصديقي الأوربي لنرى ما الحالة في الميدان ولنشتري بعض الأكل. وقت الظهر كانت منطقة السوق في باب اللوق القريبة من ميدان التحرير ممتلئة بالناس وهادئة، واشترينا بعض الدواء من صيدلية في طريقنا إلى الميدان، الذي أصبح مؤمنًا بخطوط من السلاسل البشرية وعدة نقاط تفتيش نصبها المتطوعون، والكثير منهم على رؤوسهم شاش من قتال ليلة الأمس. وجدنا الناس في الميدان متوترين ومرهقين، لكن ما زالوا منظمين، وأغلبهم مصمم على البقاء، وهناك آخرون غير واثقين، والجميع يتوقع هجمة جديدة هذا المساء. بدأ سيل من المتظاهرين في التوافد من جميع الاتجاهات، باستثناء اتجاه عبد المنعم رياض، حيث تستمر المواجهة مع البلطجية المؤيدين لمبارك.

ونحن نطوف بالميدان سريعًا، رأيت فجأة صديقًا قديمًا لي رحبت به بحماس، ما كنت لأتوقع وجوده هنا، هو الشيخ (ن)، المتصوف الإسلامي الذي يمضي أغلب فترات العام في نصب خيمته وتقديم الطعام المجَّاني والإقامة المجانية لزوار الموالد في شتى أنحاء مصر. لكن لم أتخيل أن تكون له أي صلة بالسياسة. لكن ها هو في ميدان التحرير، بعد أن غيَّر جلبابه الأبيض وعمته ببنطلون جينز وجاكيت، يتظاهر ضد القمع، منذ أسبوع على الأقل. نصب خيمته في واحدة من المناطق الخضراء في

الميدان، ووجدته مع بعض أنصاره. أحسست بالسرور بعد أن قابلته. أحسست بأمل بالغ.

التصميم المختلط بالأمل هو مزاج هذا الصباح وفترة بعد الظهر. لكن هناك علامات مُبَشرة. ونحن نغادر الميدان رأيت ضابط شرطة (من شرطة المرور أو المباحث، ليس من الأمن المركزي الذي ضرب المتظاهرين) ينضم إلى المتظاهرين في زيه الرسمي، وإن استغرق المتظاهرون بعض الوقت قبل أن يقتنعوا بانضمامه. ومع سيري في الشوارع، رأيت أن أغلب المحلات قد فتحت الشاشات على القنوات الفضائية، وليس التلفزيون المصري. استمرت المناقشات الحامية على كل ناصية، وحالة الحماس لمبارك قصيرة الأجل تحولت من جديد إلى حالة مزاجية انتقادية، وإن كانت غير مُجْمِعَة على رؤية مشتركة بأي حال من الأحوال. في مقهى حيث التلفزيون على قنوات الدولة، رأينا رئيس الوزراء الجديد وقد طل على الشاشة في حالة من الأسف والتوتر، يقدم اعتذاراته عن أحداث عنف ليلة الأمس.

أثار هجوم البلطجية على ميدان التحرير غضب الكثير من الناس. في ساعات الصباح الأولى انتشرت عربات توصيل الجرائد في شتى أنحاء المدينة، وظهر في صفحات الصحف المستقلة صورًا عجيبة للبلطجية على ظهر الخيول يقتحمون المظاهرة المؤيدة للديمقراطية. هذه الصور لن تُنسى بسهولة، وغيرت الموقف من جديد. قال أحد الأصدقاء ممن كانوا في التحرير ليلة أمس إنه في ساعات الصباح الأولى قابل رجلاً وصل لتوه لحماية المظاهرة، وقال له إن بعد كلمة مبارك يوم الثلاثاء صدقه وكان مستعدًا للعودة إلى البيت، لكن بعد ما حدث يوم الأربعاء، فها قد عاد إلى الشارع. هذه الحالة تعطي الناس الأمل، والبعض يقول إن مبارك قد سقط فعلاً،

فهجمة ليلة الأمس لم تكن من أعمال مبارك، بل النظام القمعي الذي يحاول مرة أخرى استخدام أساليب الفوضى والترهيب القديمة. مبارك قدم كل التنازلات التي يمكنه تقديمها. لا يبقى أمامه غير الاستقالة. السؤال هو: متى؟ وكيف؟

حتى الآن هذا يوم وسيط، انتقالي، يوم من الانتظار المتوتر بين أحداث جسام متلاحقة وقعت ليلة أمس، وفي انتظار الغد، يوم انطلاق المظاهرة الكبيرة التي ستخرج في شتى أنحاء مصر. قد تكون هذه المظاهرة فاصلة. لكن أولاً، سوف نرى ما الذي سيحمله الليل. ربما يمكننا توصيل بعض الطعام إلى الميدان مرة أخرى.

الجمعة ٤ فبراير ٢٠١١

مظاهرة حاشدة ونتائج غير واضحة

شهد الأمس مرة أخرى مظاهرة حاشدة ملأت ميدان التحرير بالكامل بالناس الذين راحوا يطالبون بتنحي مبارك. لا بد أن الجميع تابعوا الأحداث على التلفزيون أفضل مما فعلْت، ومعرفتي بما حدث محدودة، لكن ربما يمكنني تقديم صورة ما عن أجواء المظاهرة.

يوم الأربعاء والخميس كانت منطقة وسط البلد مكانًا صعبًا على الأجانب، مع انتشار العصابات المؤيدة لمبارك في الشوارع، وظهور تقارير عن القبض على أجانب ونقلهم إلى المطار. وكذلك في بيتنا سمعت مرة واحدة على الأقل أشخاصًا يدخلون الشارع ويسألون إن كان هناك أجانب يعيشون في البيت، والناس الذين يحرسون الشارع قالوا إنه لا يوجد أجانب هنا وقالوا لهم بقوة بأن يذهبوا. على أساس ما سمعناه في الشارع وعن طريق الإنترنت قررنا أنه من الحكمة أن ننتقل من هذه الشقة إلى الزمالك، وهي منطقة راقية لم تحدث فيها مصادمات مع البلطجية. من هناك –كما اتفقنا– سوف ينتقل بعضنا إلى التحرير ويقيم الآخرون في شقة صديق هناك. لكن مع نزولنا الشارع، تبيَّن أن الموقف اختلف عن ما حسبناه ونحن في الشقة. شوارع وسط البلد أصبحت ممتلئة بالناس المتجهين إلى التحرير للتظاهر مطالبين بالديمقراطية، وقررنا بشكل تلقائي الانضمام إليهم. دون أدنى مشكلة وجدنا أنفسنا عند مدخل ميدان التحرير حيث كانت هناك صفوف من المتطوعين يفتشون

بطاقات وجيوب الناس كما كانوا يفعلون منذ بدء المظاهرات في التحرير. لكن تغيَّر شكل الشارع كثيرًا منذ كنا في هذه النقطة قبل يوم ونصف. أقيمت حواجز ضخمة من أسوار مواقع البناء، فسُدَّت مداخل الميدان، وأمام هذه الحواجز خط إضافي من السلك الشائك وضعه الجيش. لم يكن هذا موقع قتال أساسي ضد عصابات مبارك، بل شارع جانبي غير مهم.

مع دخولنا الميدان، وجدنا الأجواء مختلفة كثيرًا، مع توافد سيل دائم من الناس على الميدان، قادمين ومعهم الإفطار للمتظاهرين الذين أمضوا الليلة هنا، والناس يرددون شعارات ضد مبارك، والأجواء متفائلة بسبب الاستجابة القوية من الناس الذين قرروا الانضمام الآن إلى المظاهرات المؤيدة للديمقراطية، الذين أطلقوا على هذه الجمعة "جمعة الرحيل".

جلسنا في الخيام في الصنية الخضراء التي تتوسط الميدان، وقضينا وقتًا طويلاً نتحدث مع المتظاهرين هناك. راحت شابة من أسرة غنية تتحدث إلينا بلغة إنجليزية أمريكية سليمة، قبل أن تكتشف أننا نتحدث العربية، وقالت لنا إن ليلة الثلاثاء مع إلقاء مبارك لكلمته، كانت مستعدة لقبول العودة إلى بيتها، لكن بعد الهجوم من العصابات الموالية لمبارك بالخيول والجمال (هذه الصور لها تأثير قوي حقًا) قررت أن تعود اليوم، لأنه من الواضح لها أن الرئيس يحاول خداع الناس. كما قالت إن الناس سألوا عن سبب قدومها للتظاهر بينما أحوالها المادية جيدة، قالت إنها لم تأتِ هنا لنفسها، بل لأجل الناس الذين يعانون من هذا النظام، وأن النظام يحاول أن يجعل الجميع يفكرون في مصالحهم الضيقة كي لا يشاركوا في أي عمل جماعي.

وهناك امرأة في أواسط العمر، هي قطعًا ليست من الطبقات الغنية مثل الأولى، قالت إن خطاب مبارك الثلاثاء الماضي كان هدفه أن يستعطف الناس كما فعل عبد الناصر في عام ١٩٦٧. وقالت: "نفس الفيلم شغال، تكراره بيكشف كذبه". يوم الأربعاء، بعد خطاب مبارك الذي قال فيه إنه لا ينتوي الترشح مرة أخرى للرئاسة، شهدت القاهرة حالة مزاجية جيدة، وربما كان ليستمر وينتشر هذا الإحساس لولا الهجوم على التحرير. إلا أن محاولة الاستمرار في السياسة القديمة، سياسة الترهيب والقمع في الوقت نفسه لنزع الناس من التحرير، أدت إلى نتيجة عكسية بكل وضوح، على الأقل في أوساط المناصرين للديمقراطية الذين أعجبتهم للوهلة الأولى كلمة مبارك. هناك رواية أخرى للمسألة، هي أن أولئك الذين ينحازون للنظام في كل الأحوال والمتشككين في التغير السياسي السريع هم من أيدوا الكلمة، على سبيل المثال هناك صديقة من الإسكندرية تحدثت إليها على التليفون، كانت تأمل أن يبقى الوضع سلميًا وقالت إن على الناس أن تعود إلى بيوتها وأن يعود البلد إلى العمل.

الناس على هذه الشاكلة لا بد أنهم صدقوا حملة التضليل التي شنها التلفزيون المصري بالأمس وتأثروا بها. لم أتمكن من متابعة التلفزيون في الميدان طبعًا، لكن ما سمعته في المكالمات التليفونية اتضح منه أن هناك أنباء تنتشر عن أن أعداد الناس في الميدان قليلة وأن الخلافات بينهم كثيرة. حملة التضليل هذه لم تقتصر على التلفزيون الحكومي، بل انتشرت إلى حد ما في الميدان أيضًا. على مدار فترة العصر تابعت شابًا راح يورط الناس في مناقشات يثير فيها تساؤلات حول ما سيحدث في حالة تنحي مبارك وإن كان الناس مستعدين للاتفاق والعودة إلى بيوتهم في أمان، وإن كانت

الطلبات واقعية، ويصور للناس أن الحكومة قدمت بالفعل تنازلات واستجابت لطلبات كثيرة وأن تصميم المتظاهرين في الميدان أصبح لا نفع منه. إصراره على مناقشة وإثارة هذا الكلام مع الناس بشكل متكرر، وليس آراءه نفسها، هو ما أقنعني أنه مخبر لأمن الدولة جاء هنا لبث الشك والفرقة في صفوف المتظاهرين، ويبدو أنه نجح في ذلك مع البعض، لكن أغلب الناس كانوا عاقدين العزم على البقاء ومصممين.

الأكثر تصميمًا في من قابلت هي سيدة من سوهاج، أجرت صحافية بلجيكية معها مقابلة. لأنها لا تتحدث الإنجليزية والصحافيون لا يتحدثون العربية، ترجمت لها. هي أرملة وأم لابنين جاءت بهما إلى هنا يوم الثلاثاء للانضمام إلى المليونية. هي غير متعلمة ويبدو أنها لا تعرف القراءة والكتابة. بعد أن مات زوجها فتحت وكالة للسفريات لكن الحكومة أغلقتها، وهو شيء يحدث كثيرًا إن كنت لا تعرف وسائط أو تدفع رشاوى كافية. أعلنت أنها لن ترحل حتى يرحل مبارك، وحتى يسقط نظام الفساد والرأسمالية وحتى تصبح السلطة للشعب. قالت إنها ستبقى هنا من أجل الحرية، ومن أجل الكرامة، وحتى تشعر بأن البلد بلدها. بكلمات قليلة تمكنت من بلورة الإحساس الذي تركن إليه هذه الحركة الديمقراطية، الإحساس بالكرامة والقوة النابعين من القدرة على قول كلمة لا واتخاذ موقف لحماية المرء لحقوقه، والإحساس بأن هذا البلد المحكوم منذ زمن طويل بنظام عميل استغلالي، يمكن أن يعود إلى الشعب من جديد. صاغ رجلان هذا الإحساس بوضوح بالغ لي فيما بعد، في اليوم نفسه، عندما ذهبنا لجلب الماء (ماء الشرب متوفر بكثرة في

الميدان). قالا: "مش حسني مبارك هو اللي قمعنا ٣٠ سنة، إحنا اللي عملنا كده ف نفسنا بسكاتنا. خلاص اتعلمنا نتكلم".

فيما يلي رسائل نصية أرسلتها إلى دانييلا زوجتي على مدار اليوم من الميدان ونشرتها هي:

١١:٣٥: رأيت الآن رجلاً سلفيًا بلحية طويلة يساعد نوال السعداوي (أبرز شخصية نسوية مصرية) في العثور على مكان مريح لتجلس في الصنية وسط ميدان التحرير.

١٢:٣٥: صلاة الجمعة في التحرير، بعدها صلاة الجنازة على أرواح الشهداء. الميدان ممتلئ بالناس. مشهد مذهل.

١٢:٥٠: انتهاء الصلاة الثانية. الجميع، من يصلون ومن لا يصلون، واقفون، يهتفون "يسقط يسقط حسني مبارك" "ارحل" "مش هنمشي، هو يمشي". الميدان ممتلئ لدرجة أن القادمين إلى الميدان سيتوزعون على الشوارع والكباري المحيطة بالميدان.

١٤:٣٤: عمرو موسى يحاول للمرة الثانية دخول الميدان ويفشل بسبب كثرة الناس الذين سدوا الحاجز الذي سيمر به. عاد أدراجه مرة أخرى. لنرَ إن كان سيتمكن من الوصول إلى المنصة.

١٥:٢٠: الناس تنتظر دخول عمرو موسى، نقاش محتدم بينهم. بعضهم يرونه رئيس مصر القادم. البعض يقولون: "مش عايزين بتوع سياسة، دي ثورة شعبية".

حشود هائلة تعلن عن مطالبة بالكرامة والحرية وأن البلد بلدهم يوم الجمعة. لكن الحكومة لم تتحرك، باستثناء بيان لنائب الرئيس بأن مبارك قد تخلى عن سلطاته بالفعل لكن لا يمكنه الإعلان عن ذلك رسميًا نظرًا إلى الظروف الراهنة. يبدو أن النظام مصمم الآن على البقاء، أن يقدم تنازلات قليلة هنا وهناك، مع الاحتفاظ بالنخبة القديمة مسؤولة عن الدولة.

من ثم غادرنا ميدان التحرير عائدين إلى الشقة (التي أصبح الوصول إليها الآن آمنًا تمامًا لأنها على مسافة شارع واحد من المنطقة التي يسيطر عليها المتظاهرون) في حالة مزاجية هادئة. لكن صحف الصباح التالي عرضت صورة مختلفة. حتى الأهرام الموالية للحكومة وضعت مظاهرة الأمس في صفحتها الأولى (رغم أنهم قالوا "مئات الآلاف" وليس "ملايين" مثل الصحافة المستقلة)، والصحافة المستقلة غطت مظاهرات التحرير تغطية موسعة. الانطباع الذي قدموه هو أن التغيير يتم الآن وأنه لا طريق للعودة إلى النظام القديم. كما أعلنوا أن "جمعة الرحيل" ستأتي بعد "أسبوع الصمود" من الحركة المطالبة بالديمقراطية.

لقد أعطت الثورة المشاركين فيها روحًا هائلة، لكن كان أثرها ثقيلاً أيضًا، وأصبح الكثيرون مثقلين ذهنيًا. (ع) الذي كان يسير معنا ونحن في طريق العودة من التحرير قال إن صديقته قُتلت يوم الجمعة الدامية (٢٨ يناير) عندما بلغ العنف ذروته، وأنه بعد ذلك لم يعد يعرف ما هو إحساسه. يقول إنه يتلو الشهادة كل ساعة لأنه يتوقع الموت في أي لحظة (وهو ليس متدينًا).

يمكن أن تتعلم ثورات المستقبل الكثير من أحداث الـ ١١ يومًا الماضية. فيما يلي بعض الدروس المستفادة التي تعرفت عليها من المتظاهرين:

– من الجائز أن تظهر حركة شعبية حقيقية لكن تتطلب بعض التنظيم والدعم الإعلامي. الدعم الإعلامي مُقدم من الجزيرة. نقص التنظيم كان لمدة طويلة هو السند الحقيقي للحركة لأنه لا يمكن وقفها عن طريق اعتقال أو اغتيال قادتها، فلا يوجد للثورة قادة، وهناك أشخاص كثيرون في التحرير لا يريدون قادة. يريدون السلطة للشعب. يريدون قادة منتخبين في انتخابات برلمانية حرة. إلا أن هذه التفاعلات على المستوى الشعبي تعني أنه بينما يمكن للمتظاهرين جمع القمامة والحفاظ على النظام والدفاع عن أنفسهم– وكلها إجراءات ابنة اللحظة– فلا يمكنهم عمل مناورات تكتيكية، بينما الحكومة تستعين بجملة من التكتيكات العديدة والمتعارضة في أغلب الأحيان تستهدف السيطرة على الثورة.

– لا بد أن تتمكن الحركة الثورية من احتلال مواقع الإعلام الحكومي. كون ماسبيرو في يد الحكومة منح النظام أداة قوية. في الواقع أرسل المتظاهرون من الإسكندرية رسالة إلى القاهرة، يقترحون فيها أن يحتل متظاهرو التحرير مبنى الإذاعة والتلفزيون. لكن احتلال المبنى (وهو على مسافة قريبة من الميدان) يعني هجومًا مخططًا بعناية، كما أن المتظاهرين سلميين وعفويين لدرجة لا يمكنهم معها القيام بهجوم كهذا.

– تحتاج الحركة الثورية إلى مكبرات صوت ذات جودة عالية. فسوء جودة مكبرات الصوت في التحرير على المنصات تجعل من المستحيل أن يتشارك جميع المتواجدين في الميدان في الخطب والرسائل التي تُبث. مع جلوسك على مسافة ٥٠ مترًا من إحدى المنصات، لا يمكنك فهم ما يُقال عندها.

السبت ٥ فبراير ٢٠١١

يوم الأنباء المتضاربة

مع عودتي إلى شقة صديقي المصري في الجيزة بعد يوم زرت خلاله أشخاصًا كثيرين في مختلف أنحاء القاهرة، لم يعد هناك ما أفعله إلا مشاهدة الأخبار، والأخبار متناقضة.

وصلت أسوأ أخبار اليوم، إذ قال مبعوث الولايات المتحدة الخاص إنه يجب أن يبقى مبارك في السلطة للإشراف على التحول السياسي السلمي. [لكن في المساء أعلنت واشنطن أن هذا هو رأيه الشخصي]. ومع معرفة ما فعلته حكومة مبارك في الشعب في الأيام الأخيرة، مع قتلهم بالرصاص وترهيبهم بالسماح بعمليات نهب موسعة، وخداعهم بشكل ممنهج على شاشات التلفزيون الحكومي، فهذه غلطة قاتلة قد تفتح الباب أمام النظام الحاكم لتثبيت شرعيته من جديد. سِجِّل مبارك فضائحي وإجرامي على أحسن تقدير، وافتراض أنه من بين كل الناس يعتبر الشخص المناسب لضمان التحول الديمقراطي، فهذا وهم كبير وتضليل.

لكن هناك أخبارًا أخرى أفضل. كانت المظاهرات في التحرير كبيرة اليوم. لم تظهر أي بوادر لعودة المتظاهرين إلى بيوتهم. والمتظاهرون فوّضوا مجموعة من عشر شخصيات عامة للتحدث باسمهم، وهو ما سيسهل بعض المناورات التكتيكية شديدة الأهمية على مدار الأيام والأسابيع القادمة. وعلى النقيض من التلفزيون المصري، فإن الصحافة – حتى بعض الصحف الحكومية وهو ما أدهشني – تكتب بشكل إيجابي

للغاية عن المظاهرات. الحزب الوطني الديمقراطي الحاكم أبعد العديد من وجوهه سيئة السمعة عن أمانة سياسات الحزب، ومنهم ابن حسني مبارك، جمال مبارك. الرئيس الجديد لأمانة السياسات هو حسام بدراوي، وهو أحد الشخصيات القليلة المحترمة في الحزب. كان قد خسر في الانتخابات البرلمانية السابقة بسبب واحدة من أبشع حالات التزوير في الانتخابات التي كانت كلها تزوير، على كل حال، قد يُرى هذا الأمر على أنه بادرة حسنة، لكن الأرجح أنه مجرد تنازل آخر صغير وسطحي، لإبقاء النخبة الحاكمة في السلطة. الحزب الوطني كما نذكر ليس حزبًا سياسيًا بالمعنى الصحيح للكلمة، بل هو كيان تابع لحكومة سلطوية.

الطقس اليوم بارد والسماء ملبدة بالغيوم، مع أمطار خفيفة من حين إلى آخر، وهو ما يعكس الطبع الهادئ لليوم. القاهرة تعود إلى الحياة الطبيعية في كل مكان عدا ميدان التحرير، الشوارع مرة أخرى ممتلئة بالناس والسيارات والمتاجر مفتوحة. الحالة الطبيعية هي ما وعد مبارك به المصريين، وهناك مصريون كثيرون يرحبون بهذا الأمر، وهناك آخرون كثيرون خرجوا وتصدوا لقوة الشرطة القاسية يوم جمعة الغضب في ٢٨ يناير (والتي وبالمناسبة كانت أكبر مظاهرة في تاريخ مصر، لكن بسبب انقطاع الإنترنت والهواتف المحمولة، لم تصل الكثير من صور ذلك اليوم إلى الإعلام). لكن الحال الطبيعية للأمور تصب في صالح المتظاهرين في التحرير ومن يدعمونهم، إذ تبيَّن الآن أنهم لا يحدثون أي فوضى.

ليس من الواضح على الإطلاق الاتجاه الذي ستسير فيه الأمور من هنا. الواضح هو أن النظام تصدى لتهديد الثورة المفاجئ بواسطة مزيج من التنازلات الصغيرة وأعمال الترهيب، ويحاول الآن البقاء حتى تهدأ الأمور. سواء نجح، أو إن

استمرت الضغوط بقوة من أجل تغيير ديمقراطي حقيقي، فهذا ما سوف تكشف عنه الأيام. لكن حتى في أسوأ الحالات، مع بقاء النظام القديم، على حد قول جميع أصدقائي، فإن مصر قد تغيرت إلى الأبد، وشعبها لن يُحكم مرة أخرى كما كان يُحكم قبل أسابيع قليلة.

أخذت تاكسي هذا الصباح مع صديقي الأوربي واتجهنا من وسط البلد، إلى الجانب الآخر من النيل، ثم افترقنا ليقابل كل منّا بعض أصدقائه. في إمبابة قابلت زوجًا (هو مصري وهي أمريكية)، قالا إن خطبة مبارك ليلة الثلاثاء نجحت في إقناع الكثير من الناس في المنطقة وإنهم أصبحوا يثقون في أن كل شيء سيعود إلى نصابه الصحيح وإن الحكومة ستفعل كما وعدت. الزوج المصري: "الغريب أن الأكثر اضطهادًا وحرمانًا على إيدين مبارك هم اللي عندهم استعداد دلوقت لتصديقه". هو نفسه كان من بين من اتجهوا إلى التحرير لمساندة المتظاهرين بعد أن سمعوا مباشرة بالهجمات التي يتعرضون لها تتقلب حاله باستمرار بين الإحباط والأمل، على حسب طبيعة الأخبار التي يتلقاها.

من إمبابة مضيت إلى صاحبي في الجيزة حيث تمكنت أخيرًا من تغيير ملابسي بملابس نظيفة. كانت رحلة متوترة، إذ بث الإعلام الحكومي الكثير عن العملاء الأجانب الذين يحرضون ويدفعون النقود للناس في التحرير، وفي عدة حالات قُبِض على أجانب ورُحِّلوا، وهوجِم صحافيون أجانب. لم أواجه أي أعمال عدائية، ولا حتى أسئلة غبية. لكن كنت خائفًا مما حدث يوم الأربعاء والخميس، عندما كنا في الشقة بوسط البلد، نسمع صوت الرصاص والشجار والصياح، وفي مرة واحدة على الأقل الناس فتشوا أجانب كانوا يحاولون دخول شارعنا (لكن الشارع كان محروسًا

بشكل جيد وسكانه لم يدعوا أيًا من مثيري الشغب يدخلون). مرت فترة قبل أن يرحل إحساس الخوف هذا. لكن حدث شيء غريب في أثناء سيري مع صديقي المصري في ميدان الجيزة اليوم. أوقفنا ضابط شرطة في الزي الرسمي وقال لنا إن اثنين أو ثلاثة من الأشخاص في ثياب مدنية سألوا عنا ويريدون السير خلفنا. سألَنا الضابط إن كنا نحتاج إلى مساعدة أو حماية؛ شكرناه وقلنا إن كل شيء على ما يرام ولا نحتاج إلى مساعدة. ليس عندي أي تفسير، لكن شكرًا لك يا حضرة الضابط، لا أريد أن يرحلوني من مصر، جئت بإرادتي وغدًا سأرحل بإرادتي.

يستمر المصريون في الانقسام حول مختلف الأحداث، لكن هناك خلافًا أقل في الشوارع عن الحال قبل يومين. هناك فريق يؤيد الرئيس بشكل حاسم، إن كان الموضوع يصب في مصلحتهم الشخصية، أو من واقع الإيمان بالزعماء الأقوياء، أو خوفًا من الفوضى، وهناك فريق آخر ينتقد الرئيس والنظام لكنه متفائل ومستعد لقبول التنازلات التي قدمتها الحكومة. التحولات التي سيشهدها هذا الفريق وذاك على مدار الأيام والأسابيع القادمة سيكون له نتيجة حاسمة، وهناك فريق هو فريق الثوار، إما يدعم المظاهرات في التحرير أو يقف داخلها الآن. (ب) الذي عاد إلى بلده في الريف بعد مشاركته في مظاهرات ٢٥ يناير قال لي على الهاتف إنه نادم بشدة على أنه لم يكن في القاهرة في الأيام الماضية، لأن "أشرف الناس في مصر موجودين في التحرير دلوقتي".

هناك سبب نفسي مهم وراء هذا الانقسام. أعلن بالأمس نائب الرئيس عمر سليمان أن "مبارك والدنا"، في لجوء إلى خطاب نابع من أفكار الحُكم الأبوي، حيث الأب واجب الاحترام حتى لو اختلفت معه. هذه خطة ماكرة تستغل بعض المشاعر

العميقة في نفوس الناس، لكن مشاعر الكثير من المصريين تغيَّرت بشكل أوديبي مدهش. (م) يقول إن هذه الثورة أشبه ما تكون بفكرة قتل الأب الفرويدية. عن طريق القتل الرمزي للأب السلطوي للأمة، يربح الناس استقلالهم كأفراد مستقلين بذواتهم.

في الطريق إلى الجيزة زرت مكتب إحدى الصحف المستقلة المصرية، وصوتها كان بالغ الأهمية على مدار فترة الأسبوع والنصف الماضيين. كانت المكاتب مزدحمة مع تحضير المحررين لطبعة الغد، والصحافيون يؤيدون الثورة بشدة. تحدثت إلى بعضهم، وسألتهم عن توقعاتهم (وأنا أعرف أن توقعاتي قد ثبت خطؤها بشدة). مثل أغلب الناس الذين تحدثت معهم اليوم، أعربوا عن مزيج من التشاؤم الهادئ والإحساس بكل فخر بالقدرة على الإنجاز. قالوا إن في أسوأ الحالات (مع استمرار حسني مبارك في السلطة) فقد تغيرت مصر إلى الأبد، وتعلم الناس المجاهرة بما عندهم من مظالم، وعرفوا كيف تكون لهم اليد العليا في التغيير وأن بإمكانهم التصدي لقسوة الشرطة، وأنهم قادرون على تحمل مسؤولية حالتهم القائمة. هذا في حد ذاته ثورة. لكنه غير كافٍ، والإعلام الحكومي يهدد هذه الحالة ببث نظريات المؤامرة الكثيرة ونشر المخاوف حول وجود جواسيس ومصالح أجنبية وفوضى، وهي كلها أساليب للحكم في العالم العربي تمرس عليها الحكام طويلاً. سوف تُظهر الأيام والأسابيع التالية حجم التغيرات السياسية الحقيقية الملموسة التي يمكن تحقيقها.

الأحد ٦ فبراير ٢٠١١

"الموضوع سيطول" – بعض النتائج الأولية من الثورة المصرية

اليوم هو يوم رحيلي عن مصر. وأنا جالس في مطار القاهرة بانتظار رحلتي إلى فرانكفورت، هذه هي المرة الأولى في أثناء الرحلة التي أندم فيها على شيء، أندم على أنني أغادر اليوم ولست باقيًا. قلت لكل مصري قابلته اليوم إنني لا أهرب، بل أعود إلى عملي في الجامعة وإنني سأعود قريبًا. لكن ربما كان هذا الكلام لأقنع نفسي لا لأقنعهم. صديقي الأوربي الذي جاء مثلي إلى هنا الاثنين الماضي باقٍ لأسبوعين آخرين. صديقتي الأمريكية في إمبابة قالت لي إنها تحن إلى العودة إلى أمريكا منذ شهور وإلى أن ترى والديها وأسرتها مرة أخرى، والحكومة الأمريكية مستعدة لأن تدفع لها مقابل رحلة العودة إلى أمريكا، لن تذهب الآن، لا يمكنها الذهاب؛ هذا البلد بلدها، وهي مرتبطة بالناس كثيرًا، خصوصًا زوجها. قبل يومين، قُبِض عليه وهو عائد من التحرير، واحتُجِز أربع ساعات، واستجوبوه وعذبوه بالصدمات الكهربية. وأصبح مصممًا أكثر من أي وقت على المضي قدمًا. كيف تتركه وترحل؟ لكن اليوم هو يوم رحيلي، وكنت قد خططت أن آتي لمدة أسبوع ثم أعود لأفعل ما بوسعي كي أتوصل إلى فكرة متوازنة عن الموقف في مصر في المناقشات الدائرة في ألمانيا وفنلندا. سوف أجري غدًا مقابلة على الهاتف مع دويتش لاند راديو (محطة إذاعية ألمانية)، ويوم الثلاثاء سأتحدث في هليسنكي في فنلندا عن الثورة أمام الجمهور. الآن، أشعر أن

الاحتفاظ بالضغط الدولي قويًا على الحكومة المصرية هو أمر بالغ الأهمية، وسأبذل قصارى جهدي.

لم يبق الكثير لأتكلم عنه مما رأيته في القاهرة، لكن ربما يمكنني التوصل الآن إلى بعض النتائج الأولية عن الأسبوع الذي قضيته.

صباح اليوم في القاهرة اتسم بعودة الحياة الطبيعية إلى كل شيء عدا ميدان التحرير نفسه، حيث تستمر المظاهرات. الشوارع هناك الآن ممتلئة بالناس من جديد، وقد رحل الخوف الذي ملأ الشوارع خلال الأيام القليلة الماضية. إذا بقِيتُ كنت لأنزل اليوم أسير في شوارع القاهرة وأتحدث مع الناس وأستشعر الأجواء على طبيعتها.

مما أعرفه من جولتي القصيرة صباح اليوم في الجيزة والدقي، أرى أن الناس ما زالوا منقسمين، لكنهم أيضًا على استعداد لتغيير آرائهم. مع انتقالي بالتاكسي أنا وصديقي المصري إلى الدقي، تبينت أن سائق التاكسي يخرج إلى الشوارع لأول مرة منذ ٢٤ يناير، ويؤمن تمامًا بما يقوله له تلفزيون الحكومة، لكن صديقي، الصحافي، قال له حقيقة ما يحدث، وسرعان ما غيّر السائق رأيه، وتذكر الكراهية القديمة التي يشعر بها إزاء النظام القمعي، والفساد، والمشكلات الاقتصادية، الأسباب التي أدت إلى خروج الناس إلى الشوارع الأسبوع الماضي. هنا جزء كبير من الناس يبدو أنهم مستعدون لتغيير آرائهم بسهولة، وإذا غيّر الكثير من أولئك الذين خرجوا إلى الشوارع يوم ٢٨ يناير، وأيضًا من مكثوا في بيوتهم، إذا كانوا قد غيروا آراءهم لصالح الحياة الطبيعية في الأيام الماضية، فقد كانوا يتوقعون أن تتحسن الأوضاع الآن، وإن لم يحدث، فمن المرجَّح أن يغيروا آراءهم ثانية. هذا هو الانطباع الذي أحسسته من سائق التاكسي الذي أقلني إلى المطار من الدقي. هو بدوره لم يغادر بيته لمدة ١١

يومًا، ليس خوفًا على نفسه، لكن لأنه كان يشعر أن البقاء في البيت يساعد على حماية أسرته. كان متشككًا كثيرًا فيما يقوله التلفزيون المصري، لكنه يتوقع أن تتحسن الأوضاع الآن. ماذا سيفعل هو وغيره إن لم تتحسن الأوضاع؟

عندما جئت إلى القاهرة قبل أسبوع، توقعت أن تسير الثورة على مسار من اثنين، إما الانتقال الناجح نحو الديمقراطية مع قلب النظام القديم كما حدث في أوروبا الشرقية، وإما إطلاق النار على الجميع وقتلهم كما حدث في الصين. مرة أخرى، كان توقعي خاطئًا (رغم أن الحكومة حاولت فعلاً عمل عملة الصين مرتين، لكن فشلت) والآن هناك شيء أكثر تعقيدًا يتشكل أمامي.

السؤال الحقيقي هو: هل ستتحسن الأوضاع أم لا؟ بمعنى آخر: هل الثورة نجاح أم فشل؟ وكيف يمكن قياس نجاحها؟ إذا كان القياس بالروح المعنوية العالية وإحساس الكرامة الذي يشعر به من يقفون ضد النظام بتصميم، فهي ناجحة. وإذا كان بالتحول العاطفي لمن خضعوا بعد جمعة الغضب مرة ثانية لمزيج من الخوف والإعجاب بكلمات الرئيس اللطيفة، فهي فاشلة. إذا أدت الضغوط الداخلية والدولية على الحكومة المصرية إلى تغيير سياسي مستدام، فسوف تنجح. لكن لن يكون بالقطع نجاحًا سهلاً، والضغط المستمر بشكل دائم مطلوب، كما قال (ك) لي هذا الصباح "الموضوع سيطول".

في الدقي زرت صديقين، (ك) من أوروبا وهي من أمريكا اللاتينية، الاثنان مصممان على البقاء في مصر. كان (ك) في ميدان التحرير ليلة الأربعاء عندما هاجم البلطجية المتظاهرين، وأمضى الليلة يحمل المصابين إلى المستشفى الميداني. يقول: "ما يقلقني حقًا هو احتمال أن يرحل مبارك ويحل محله عمر سليمان الذي سيتمسك

بالسلطة بموافقة الأمريكان. هو أسوأ من فيهم". في حال حدوث هذا، فهو يحاول أن يستخرج لصديقته تأشيرة الشينجن إلى أوروبا، لأن لو نجحت حملة عمر سليمان ضد "العناصر الأجنبية" و"الأجندات" واستمرت، فسوف يأتي يوم يُجبران فيه على المغادرة.

لا بد من ذكر القليل عن مشاركة الأجانب في الثورة. مثل الحرب الأهلية الإسبانية، تعاطف الكثير من الأجانب مع الثورة المصرية، وأغلبهم يعيشون في مصر منذ زمن طويل، فشاركوا في النضال من أجل الديمقراطية. كان نضالاً متناقضًا من بعض الأوجه، لأن التلفزيون الحكومي استغل وجود الأجانب في ميدان التحرير لنشر نظريات مؤامرة مجنونة عن وجود أجندات أجنبية وراء الحركة الديمقراطية. كلام عن تحالف ضد مصر.. هذا ما يريد التلفزيون من الناس أن يصدقوه، من أجندات إسرائيلية وإيرانية وأجندات تخص حركة حماس. أكثر نظريات المؤامرة جنونًا أسمعها منذ زمن طويل. لكن للأسف نظريات المؤامرة لا تحتاج إلى أن تكون عاقلة كي يصدقها الناس.

لكن لنعود إلى أرض الواقع، إذا كانت الثورة قد علمتني شيئًا واحدًا، فهو أن الشعب المصري لا يتطلع إلى أوروبا أو أمريكا كنماذج للمستقبل الأفضل؛ لقد أظهروا أنهم يقدرون على تخيُّل مستقبل أفضل من صنعهم (بمساعدة هامة من تونس). مقارنة بحكوماتنا وكلامها الكثير بلا فعل عن الديمقراطية واسترضاء الطغاة، فقد قدم المصريون للعالم نموذجًا عن الحرية والشجاعة التي نتطلع إليها جميعًا كمثال. هذا الإحساس بالإعجاب والاحترام هو ما جذب الكثير من الأجانب إلى ميدان التحرير على مدار الأيام القليلة الماضية، وأنا منهم.

بصفتي باحثًا أنثروبولوجيًا بحث طويلاً في ظاهرة الموالد في مصر، لاحظت عنصرًا احتفاليًا مدهشًا في المجال الثوري بميدان التحرير. هذه ليست فقط مظاهرة ضد نظام قمعي ومطالبات بالحرية، الميدان في حد ذاته هو الحرية، هو لحظة حقيقية وفعلية معيشة من الحرية والكرامة التي تطالب بها الحركة الديمقراطية، من ثَم فهذه لحظة متناقضة، لأن تفردها البالغ والواضح (هناك إجماع على عدم ترديد أي شعار حزبي في الميدان) وقوتها لا تعني إلا أنها لحظة انتقالية عابرة، لأن حتى في أكثر السيناريوهات نجاحًا لا يمكن إلا أن تتبعها فترة انتقالية طويلة، وخطط ومفاوضات وسياسات حزبية، أي شيء إلا لحظة الوقوف جماعة والتجرؤ على قول "لا" أخيرًا. لكن بفضل الطبيعة اليوتوبية الفاضلة لهذه اللحظة، فهي غير قابلة للهزيمة، ما إن توصل إليها الناس، فلا يمكن مسحها من عقولهم من جديد. ستبقى تجربة يتطبع بها جيل بأكمله، بمختلف ألوانها ومن مختلف وجهات النظر التي أدركتها وألمت بها.

إلا أنه من جانب آخر، فإن العلاقة بين ما هو عابر وما هو دائم علاقة هامة للغاية. الثورة ليست أمرًا سريعًا، بل تتطلب الإصرار البالغ. البعض لديهم هذا الإصرار، ويستمر الملايين في التظاهر (تذكروا أن في الإسكندرية والمدن الكبرى في الأقاليم جميعًا هناك مظاهرات قائمة أيضًا)، إلا أن هناك آخرين كان لديهم من الغضب والطاقة ما يكفي للخروج يوم جمعة الغضب ٢٨ يناير ليقولوا "لا" بصوت مرتفع، لكن ليس لديهم الإصرار على تحمل إغراء خطاب الرئيس يوم الثلاثاء الموافق ١ فبراير عندما أظهر مبارك نفسه إنسانًا أخلاقيًا، محارب قديم مصمم على أن يموت ويُدفن في تراب وطنه. قال لي صحافي إن هذه هي أول مرة يظهر من مبارك جانب

أخلاقي، بل وكأن تلميحه إلى أنه قد يموت يومًا ما قد أدى إلى تعاطف الكثير من الناس معه.

نعود إلى الكلام عن الأجيال.. هذه الثورة أُطلق عليها ثورة الشباب من الجميع، سواء من المتظاهرين أنفسهم أو من الإعلام الحكومي أو الإعلام الدولي. هذه الصفة لها معانٍ كثيرة، قد تعني الطبيعة التقدمية للحركة، وقد تعني أيضًا وصف الحركة بأنها غير ناضجة، في الحالتين، وفي رأيي كما رأيت الحركة بنفسي، فهي ليست حركة شبابية، هناك أفراد من جميع الأعمار يساندون الثورة، مثلما كان هناك ناس من جميع الأعمار يعارضونها أو لهم فيها رأيان. ولو أن أغلب المتظاهرين من الشباب، فالسبب هو أن أغلب المصريين صغار السن.

أتأمل كيف ينقسم المصريون حول ثورتهم، من المهم أن نرى كم قدم لي مصريون كثيرون تفسيرات نفسية للثورة. التفسير الأبسط بشأن تحوُّل الكثيرين من الذين خرجوا إلى الشوارع يوم جمعة الغضب لكن لم يجدوا غضاضة في مساندة الرئيس بعد كلمته إثر المليونية (١ فبراير)، هو أن المصريين عاطفيون ويتفاعلون عاطفيًا بسرعة، وبشكل غير قابل للتنبؤ. (لكن أعتقد أن هذه النظرية بسيطة بشكل مخل، فلا تفسر لماذا يتفاعل الناس مع بعض الرسائل النفسية دون الأخرى).

إحدى النظريات الأخرى تدور حول عقدة أوديب الفرويدية، عن فكرة قتل الأب، التي كتبت عنها بالأمس. هناك تفسير آخر، هو نظرية متلازمة ستوكهولم، التي ذكرها البعض كتفسير لمن دعموا النظام، وأن هؤلاء المساندين للنظام هم من بين أكثر من أحسوا بالأذى والاضطهاد من النظام من قبل. متلازمة ستوكهولم، تشير إلى حادث احتجاز الرهائن في أثناء سرقة بنك في ستوكهولم، حيث كان رد فعل الرهائن

هو مساندة خاطفيهم الذين كانوا تحت رحمتهم. هناك شيء من الصحة في هذه النظرية.

الخميس ١٠ فبراير ٢٠١١

القوة والحالة العادية والثورة

وأنا أكتب هذه السطور، تستمر ثورة ٢٥ يناير في شوارع مصر، وأي شيء يُكتب هذه الأيام يتطبع بطابع اللحظة، وسيَثبُت خطؤه بطريقة أو بأخرى مع تطور الأحداث. هذا درس لا بد أن يتعلمه الأكاديميون من هذه الثورة والثورات الأخرى: الواقع يتغير بطريقة تجبرنا على تغيير أسلوب تفكيرنا أسرع مما اعتدنا، وأن نقر بمدى ارتباط نظرياتنا بوقائع تاريخية انتهت. في هذا المقال، سوف أحاول عرض بعض الاستنتاجات الأولية عن كيف غيَّر الزخم الثوري من رؤية المصريين للمتاح لديهم من تحركات. فلأكن أكثر شاعرية؛ سأحاول الخروج بإحساس مبدئي عن الروح الثورية، وأيضًا عن بعض من القيود المحددة لهذه الروح.

الحالة: عادية؟

طرت إلى مصر في ٣١ يناير ٢٠١١ بدلاً من الذهاب إلى عطلة طويلة في فنلندا، حيث كنت آمل أن أعكف على إعداد مقال يتعلق بتجربة صديق لي، عمل مفتشًا للصحة شماليّ مصر. كانت مهمة المفتش الأساسية هي الذهاب إلى المخبز المدعم من الدولة مرة كل يوم، والمرور على الطابور، وأخذ عينة من الخبز والتوقيع في دفتر التفتيش: "الحالة: عادية". أوضح صديقي أن المكتوب لا يتعرض لكون الخبز جيدًا أو لا، بل مجرد حالته. في المقال، كنت أريد أن أكتب عن هذه التجربة الهدّامة: أن تحاصر الوعودَ البراقة بالتنمية والتقدم شباكُ ومستنقعات المحسوبية والفساد،

والمطامح الكبرى بالإنجاز الفردي الذي يصطدم بجدار الإحباط كل مرة. خلال الأعوام القليلة الماضية، تطورت عندي نظرة ناقدة لمنهج فوكو[1] في التعامل مع الدين والأخلاق والحَكْوَمة والعلمانية... إلخ، من وجهة نظر منهج الحَكْومة والموضعة[2]، لأنني أحسست أن هذه المناهج لا تفسر كيف هي الحال عندما يعيش المرء في ظل الأوضاع التي وصفوها. في المقال الذي كنت سأكتبه، كنت أريد الوصول إلى منهج أوضح لفهم التوقعات والمخططات الكبرى، مع النظر إلى كل آلية للتحايل والالتفاف على الإحباطات، يلجأ إليها الناس ليجدوا في هذا الركن أو ذاك القليل من الكرامة الإنسانية في عالم يحرمهم منها. فهذا الأسلوب من الناس هو منهج مأساوي، كذا كنت أود أن أوضح، لأن هذه الأساليب في حد ذاتها، أساليب الالتفاف والتحايل، تعني في الوقت نفسه المساهمة في خلق نظام من الفساد والمحسوبية وعدم المشروعية، وهي نفسها المشكلات التي يريدون الهرب منها.

كنت مخطئًا. فجأة لدهشتي البالغة – ليس فقط لدهشة المراقبين الأجانب مثلي، بل أيضًا دهشة المصريين أنفسهم– خرج قطاع كبير من الشعب إلى الشوارع واستعادوا كرامتهم الإنسانية مطالبين بأن يسقط النظام كاملاً. ما لم آخذه في الحسبان هو أن تجربة الإجبار على أن يصبح الإنسان جزءًا من نظام فاسد من العلاقات –وهي تجربة مهينة ومؤلمة– من أجل أن ينجو من الضغوط، قد أصبحت هذه التجربة أرضًا خصبة لنمو الغضب والرغبة الحارقة في العيش في عالم آخر،

---

١) الفيلسوف الفرنسي ميشيل فوكو.

٢) Governmentality and subjectivation المصطلحان اصطكهما الفيلسوف الفرنسي ميشيل فوكو: حكْوَمة (تُنطق كما تُنطق عولمة) بمعنى "الممارسات ذات الطبيعة النظامية (العقليات والآليات) التي يُحكم بها الشعب". الموضعة، مشتقة من موضوع، الموضعة تسبق الموضوع، كما تسبق القولبة القالب. تعريف المصطلحين اجتهاد من المترجم، قد يصيب وقد يخطئ.

إحساس لم يكن بحاجة إلا إلى ثورة ناجحة مثل تونس كنموذج لاكتشاف أنه بدلاً من التكيف مع الحالة العادية، فإنه فعلاً من الممكن أن يحدث التغيير.

بعد ما قلته أرى أن منهج فوكو في دراسة القوة هو منهج قاصر عن فهم الروح الثورية. الثورة نتيجة، لكن لا يمكن فهمها من واقع دراستها تحت عدسة الموضعة أو التطور العضوي أو الحَكْوَمة، أو أي منهج آخر يركز بالأساس على كل ما هو متعلق بخطاب المجتمع وبكل ما هو استراتيجي. كما عرفت بنفسي في مصر، وكما سمعت من الناس الذين شاركوا في الثورة، هي حالة مزاجية، إحساس يتسم بالتغيُّر الغريب في العلاقة بين ما هو خيالي وما يدخل في إطار القابل للعمل والإنجاز، حالة انتقالية من الاستثناء، هي على علاقة مفتوحة بالإصرار على التحول السياسي والاجتماعي. في المساحة الضيقة المتاحة لي في هذا المقال، سأحاول أن أوضِّح ما أقصد بهاتين النقطتين قبل أن أنتقل إلى استنتاجاتي الأولية عن العلاقة بين القوة والحالة العادية والثورة.

"كده أكتر من أي شيء كان ممكن أحلم به".

الناس الذين تحدثت معهم في مصر راحوا يحيلونني إلى كيف أنهم مندهشون من الأحداث. بعضهم قالوا لي إنهم خرجوا للتظاهر يوم ٢٥ يناير لكن لم يتوقعوا أن يتظاهر أحد معهم. وفي أكثر من مناسبة، توقع الناس أن تفقد الثورة زخمها وأن يتعب الناس ويسلموا أمرهم، ثم بكل سعادة يندهشون عندما تتجمع حشود جديدة كبيرة من المتظاهرين تملأ شوارع المدن. مع تزايد الثقة في إمكانية تغيير الأوضاع، تزايدت مطالب المتظاهرين سريعًا، من مطالبة مبارك (وابنه) بعدم الترشح في الانتخابات القادمة، إلى المطالبة برحيله، وها هم الآن يطالبون بمحاكمته. النجاح في

كونهم قادرين على عمل شيء بأنفسهم، وهذا الشيء كانوا يشكون قبل أيام في إمكانيته، أعطاهم إحساسًا هائلاً بالفخر والكرامة والثقة في قدرتهم على تغيير العالم. هذه هي اللحظة الثورية الأصيلة: لحظة ميلاد الإحساس بشيء لم يكن بالإمكان تخيله من قبل، لحظة أن يكون هذا الشيء المولود في طور التحقق. لكم يتناقض هذا مع تجربة "الحالة العادية"! فإن الوعود الكبرى والتوقعات العظيمة –سواء كانت سياسية أو دينية أو اقتصادية أو أخلاقية– تكون دائمًا سابقة بمسافة بعيدة لواقع مُحبط ومهين. إذن–في الحالة العادية– كان الواقع أقل كثيرًا من الخيال، فإن في الثورة، يسبق العملُ والإنجازُ الخيالَ، ويخلق أرضًا جديدة غير متوقعة للحلم. الحالة الثورية تغيِّر العالم، ليس فقط لأنها تغير منطق الحَكْومة، وعلاقات القوة، أو آليات الموضعة وصب قوالب ما يمكن عمله (رغم أن هذا سيصبح ضروريًا في مرحلة لاحقة من الثورة)، لكن لأن هذه اللحظة الثورية في حد ذاتها هي تغيير شامل للوجود بالنسبة إلى المشاركين في اللحظة: إعادة تقييم للموقف من وجهة نظر الإحساس والعاطفة.. طريقة جديدة لأن تكون في العالم.

هذه نقطة انطلاق وبداية. لكن السؤال –بالطبع– هو: إلى أي مدى سيكون التغيير دائمًا وبلا رجعة. يبدو الآن أن الثورة المصرية ستكون ثورة طويلة، لكن يومًا ما، سوف تنتهي، للأفضل أو للأسوأ. السؤال إذن: ما الذي تفعله اللحظة الثورية للظرف "الطبيعي"؟

استنتاجات أولية

ما زالت درجة نجاح الثورة المصرية غير واضحة مع كتابتي هذه السطور. الوضع حرج، والمصريون على ما يبدو بصدد نضال طويل. أيًا كانت "الحالة العادية" الجديدة

التي ستسفر عنها الثورة، فالمؤكد أن جيلاً من المصريين الذين شاركوا في هذه الثورة لا يمكن أبدًا أن يُحكموا بنفس طريقة ما قبل الثورة. هذه التجربة من العمل والتغيير للأوضاع بأيديهم، والخروج بنجاح إلى الشوارع في ٢٥ يناير وتصديهم بنجاح للشرطة في ٢٨ يناير، وإرساء القانون والنظام في غياب الشرطة بعد أعمال نهب ٢٩ يناير، وتنظيم مظاهرات جماعية سلمية كبرى ووضع النظام السياسي كاملاً تحت الضغط، كل هذا غيَّر من طريقة فهمهم لنطاق الممكن في العمل العام. أي محاولة لحُكم هؤلاء، سواء حكومة ديمقراطية أو نظام سلطوي يتمكن من لمِّ شتاته من جديد، لا بد أن تأخذ هذا التغيير في الاعتبار.

من ثم، فإنني أعلن وصولي إلى أعتاب نتيجة نظرية مبدئية. قال ميشيل فوكو ضمن مقولاته المشهورة بأن القوة لا تعني غياب واستبعاد المقاومة، لكن كل شكل من أشكال القوة يخلق معه شكلاً معينًا من أشكال المقاومة. "الحالة العادية" في السنوات الماضية ولحظة الثورة التي بدأت في ٢٥ يناير تُلزمني بقلب هذه المقولة رأسًا على عقب: قبل الثورة كان "النظام" إلى حد بعيد نتيجة لمحاولات الشعب لأن يتحمله ويتكيف معه، مما أعطاه هيئة شريرة ومهينة في الحقيقة. مع استمرار الثورة فإن "النظام" الذي يحاول المصريون أن ينقلبوا عليه حاليًا، يتبدل سريعًا على يد النظام السياسي في رد فعل لحركة شعبية عفوية تُدهش النخبة الحاكمة بلا توقف. بعد الثورة، سوف تظهر أساليب حكم جديدة لمصر، أفضل أو أسوأ. إذن، فمع قلب مقولة فوكو رأسًا على عقب، يصح القول إن الثورة المصرية أظهرت أن كل شكل من أشكال المقاومة يُنتج شكلاً معينًا من أشكال القوة.

الخميس ٢٤ فبراير ٢٠١١

الثورة مستمرة على المستوى المحلي

مع تجهيزي للعودة إلى مصر في ظرف أسبوعين، أجد نفسي قد تأخرت على الثورة مرة أخرى. هذه المرة هي ثورة السياسة على المستوى المحلي في قرية في الدلتا. بالأمس وصلتني رسالة نصية من (ب) يقول فيها إنه في اعتصام في مجلس مدينة مطوبِس شمالي مصر. اتصلت به، وفي البداية سمعت صياحًا: "مش هنمشي، هو يمشي"، نفس الشعار الذي ردده المتظاهرون لإزاحة مبارك، والآن هو الشعار في الحركات المحلية للتخلص من الإدارات الفاسدة والسلطوية على مستوى المحليات. قال لي (ب) إنه ومعه الكثير من أصحابنا المشتركين في مجلس المدينة حاليًا يطالبون بتنحي رئيس مجلس المدينة.

وهذا ما حدث: قبل يومين بدأ أهل القرية في حملة لجمع القمامة التي كانت تغمر حواري القرية في مجهود جماعي كبير. تنظيف القرية كان على نموذج عملية التنظيف العفوية في أثناء مظاهرات ميدان التحرير، وكذلك حملة التنظيف التي بدأت في القاهرة والمدن الكبرى بعد تنحي مبارك. ها هو الآن نفس أسلوب العمل الجماعي على مستوى القرية. بعض النشطاء السياسيين كان لديهم شك قليل في حملات التنظيف هذه، إذ يرونها عملاً تجميليًا يشتت الانتباه، كونه يجعل الناس يشعرون بأنهم عملوا ما عليهم دون أن يغيروا أي شيء. لكن أعتقد أن عملية التنظيف تحمل الكثير من الزخم الثوري الحقيقي والهام. فهي مرتبطة بإحساس ذكره

لي كثيرون في مصر في زيارتي الأولى: "لو رحل مبارك، أخيرًا هاعتبر البلد دي بلدي". تنظيف المرء لشارعه أو قريته هو تعبير قوي منه عن أن هذا المكان مكانه وملكه، فهذا نموذج هام على كيف يرسم العمل الممارس أرضية جديدة للتوقعات والآمال.

على الأقل الموضوع هذه المرة في القرية، والتنظيف لا يعني قطعًا أن الناس ستكف عن التفكير في المؤسسات السياسية. بالأمس، ذهب من نشطوا في حملة تنظيف القرية من طلاب ومعلمين وأطباء وآخرين من الطبقة المتوسطة الريفية، إلى مطوبس، وهي المركز الإداري للمنطقة، لمناقشة اهتماماتهم ومطالبهم مع رئيس مجلس المدينة، وتتعلق بصيانة الشوارع والمرافق العامة والسوق السوداء والتوزيع غير العادل للخبز المدعم. رئيس مجلس المدينة (الذي لم ينتخبه الناس، بل عينته الحكومة) رفض بشكل قاطع الكلام معهم، وقال: "فاكرين تقدروا تعملوا هنا اللي عملوه في القاهرة؟ انسوا" وكرد فعل، نظم الناس اعتصامًا أمام مجلس المدينة، مطالبين بإدخال تحسينات على الحكم المحلي، وطالبوا بتنحي رئيس مجلس المدينة.

تستمر المواجهة مع كتابة هذه السطور.

في مطوبس، وصلت الثورة إلى الأرياف. ما بدأ برأس الدولة، يستمر حاليًا على مستوى السياسة في المحليات، وهو أمر مطلوب وهام للغاية.

الجزء الثاني

من ٥ إلى ١٩ مارس

رحلتي الثانية إلى مصر

السبت ٥ مارس ٢٠١١

الثوار يلعبون الكرة

خصصت أول أيامي بعد العودة إلى القاهرة للسير في وسط البلد، ومقابلة الأصدقاء في الجيزة والدقي، وحضور مباراة كرة قدم مع أصدقاء لي بمناسبة افتتاح مرحلة ما بعد شفيق، كنت ألعب معهم الكرة كل يوم سبت خلال السنوات الماضية. هو يوم تختلط فيه مشاعر الأمل والفخر بالقلق والتوتر، وبداية خطوة هامة جديدة للثورة. سأبدأ بالكرة.

مع دخولي مركز شباب الجزيرة قابلت (ر) وهو موسيقي، سألته كيف الحال، فقال "للأفضل"، لكنه أضاف: "لكن في ناس كتير اتأذوا بسبب الحرب النفسية في الأيام السابقة على ١١ فبراير، وقتها كان فيه خوف كتير، والدعاية لمبارك على آخرها، فكتير مننا جاتلهم بارانويا. عشان كده مقدرناش نلعب كرة لغاية النهاردة. أكتر من مرة قلنا لازم نلعب تاني، لكن القلق كان رهيب، وكان فيه توترات بين الناس في التحرير: نعمل ده، لأ نعمل ده، نقعد، نمشي. دلوقت بس بعد ما مشي أحمد شفيق، واضح إن دي لحظة مناسبة للراحة ولعب الكرة تاني". سألته إن كانت هناك أي أخبار جديدة في حياته. قال (ر): "مفيش دلوقت غير الثورة". قال (ر) الكلمات التي أحسستها في الآخرين: الالتزام بالثورة يعني الإصابة بقدر هائل من القلق. هناك قلق مستمر، وخوف مستمر مما سيفعله النظام، وإن كان المتظاهرون سيبقون يدًا واحدة، وإن كان الدعم الشعبي كافيًا، ولمن ينحاز الجيش؟ وهل يمكن أن

يُقبَض عليَّ؟ إحساس الخوف والقلق هو وقود الثورة، هو ما يبقيها قائمة، إذ يحافظ على الناس يقظين ونشطين. لكنه أرهقهم كثيرًا وخلق لديهم إحساسًا بالبارانويا.

مركز شباب الجزيرة واحة صغيرة من الملاعب الرياضية للجمهور (الدخول بخمسة جنيهات والعضوية غير مطلوبة) في وسط أندية اجتماعية للنخبة المصرية. ملاعب الكرة غير ممهدة جيدًا، لكن اللعب هنا متعة، في جزيرة خضراء وسط المدينة، مع إطلالة رائعة على مقر الحزب الوطني المحترق على الجانب الآخر من النيل. كانت مباراة جيدة على ضوء شمس ما بعد الظهر، رغم أن الفريق الذي لعبت فيه خسر بنتيجة ٥ إلى ٤ أهداف. الناس في هذا الملعب أغلبهم من اليسار، منهم فنانون وموسيقيون، لكن حتى بداية الثورة كان أغلبهم غير متورطين في النشاط السياسي. على مدار الشهر الأخير أصبحوا مشغولين بالثورة بشكل شبه دائم، لا ينشغلون بغيرها. هذه هي أول مباراة لهم منذ بدء الثورة، وبينما هناك إحساس بأن الأمور تسير في مجراها الصحيح وأن الاسترخاء والراحة ممكنان، فما زالت الثورة تشغل بال الجميع. الكلام القليل في الملعب من الحين إلى الآخر كان دائمًا عن أين كان فلان أو فلان في هذا اليوم الهام أو ذاك من أيام الثورة، لا سيما في أثناء الأيام الأولى، عندما كانت الشرطة ما زالت تهاجم المتظاهرين، حتى التعليقات في أثناء المباراة كانت نكات تشير إلى الثورة، الهجمة المرتدة يُشار إليها دائمًا مثلاً على أنها الثورة المضادة.

كانت الكرة لحظة يسترخي فيها الأصدقاء من توترات الثورة. والراحة من الثورة ليست بالأمر السهل، فلها مشكلاتها في حد ذاتها. صديقة (ك) تقول لي إن الكثير من الذين شاركوا في الثورة يعانون الآن من الاكتئاب، بعد لحظات من النشاط

المكثف، ومع عودتهم إلى الحياة اليومية العادية. خسر الكثير منهم وظائفهم، وهناك آخرون لا يعملون ليعودوا إلى أعمالهم من الأساس، وقد تحطمت علاقات وزيجات كثيرة خلال الأسابيع الماضية. سألت صديقي (م) عن رأيه في هذا فقال: "آه، ده صحيح. بعد ما تشارك في الثورة تشوف الحياة مملة وملهاش معنى. تروح الشغل وتشتغل، بس من غير إحساس". المشاركة في الثورة تجربة مرضية للغاية. فالثورة تستولي على حياة المرء، وحتى أحلامه. فيها من الخوف والقلق والاختلافات الكثير، لكن فيها إحساسًا قويًا بوجود قضية: كل شيء تفعله مهم. عندما تمر هذه اللحظة وترحل، يمكن أن يتحول مسار الحياة اليومي المضجر إلى اكتئاب. (أتساءل إن كان من أسباب بقاء الباقين في اعتصام التحرير صعوبة عودتهم إلى الحياة اليومية العادية).

بعد المباراة ركبنا سيارة (ر) الذي أوصلنا، ولم يكن مع غيره سيارة، واستمرت المناقشات السياسية في السيارة، هذه المرة عن عملية استفتاء غير واضحة المعالم على التعديلات الدستورية في ١٩ مارس، وعن الانتخابات الرئاسية المقبلة. المرشحون المحتملون حتى اللحظة هم عمرو موسى، الأمين العام لجامعة الدول العربية ووزير الخارجية السابق، ومحمد البرادعي، المدير العام السابق للوكالة الدولية للطاقة الذرية، وهشام البسطاويسي، قاضي من أهم المعنيين باستقلال القضاء على مدار السنوات الأخيرة. لم يعرض أي من هؤلاء المرشحين اتجاهًا سياسيًا محددًا إلى الآن، وأصدقائي من ملعب كرة القدم لا يتفقون على أي منهم بعد. يرى (ر) أن البرادعي هو الوحيد حتى الآن الذي يقدم رؤية منطقية وعقلانية، ويمكن تصديقه عندما يتحدث عن حرية الرأي والديمقراطية، إذ أنه مهتم بهذه القضايا منذ البداية. اختلف مع هذا الرأي

شخص آخر وقال إن هناك أشياء قالها البرادعي لا يتفق معها، لكن على كلٍ، فهو يريد رؤية برامج المرشحين قبل أن يتخذ قراره.

مسألة اتخاذ القرار من الأمور التي تواجه المصريين هذه الأيام، وهناك قدر كبير من المناقشات الدائرة، وليست كلها مناقشات حول الثورة، كما كانت الحال في مطلع فبراير. في المترو وفي الشوارع، هناك قضايا أقل إثارة تهيمن، لكن في ميدان التحرير الحوار الوحيد هو حوار الثورة.

في ميدان التحرير توجد مجموعة مهمة من الناس مستمرون في اعتصامهم للضغط من أجل المطالب الباقية، من إسقاط أمن الدولة، والإفراج عن جميع السجناء السياسيين ووضع حد لحالة الطوارئ رسميًا. وفي الوقت نفسه، فميدان التحرير اليوم هو مقصد مجموعة متجددة من الأشخاص الفخورين ومن الفضوليين، الذين يزورون موقع الثورة لشراء تذكارات ثورية: أعلام وبوسترات وتي شيرتات وأرقام سيارات "٢٥ يناير". إلا أن الكثير منهم لا يساندون الاعتصام القائم، وتدور مناقشات حامية عن استمرار الاعتصام في شتى أنحاء الميدان.

وقفت لفترة في ميدان التحرير أستمع للمناقشات، وفي بعض الأوقات أتناقش مع الناس أيضًا. لكل شخص وجهة نظره، لكن هناك ثلاث رؤى واضحة. الأولى هي أن الناس يدعمون المتظاهرين والمظاهرات الحالية تمامًا حتى سقوط النظام القديم بالكامل. الثانية تخص أفرادًا يقدمون آراءً تتطابق مع آراء مؤيدي مبارك في مطلع فبراير، إذ يقولون إن هؤلاء المتظاهرين يتقاضون الأموال ولا يعرفون حتى سبب تظاهرهم. الرأي الثالث لأشخاص كانوا يدعمون الثورة، وشاركوا فيها جزئيًا، لكن يشعرون أن استمرار الاعتصام في التحرير الآن بعد الوفاء بأغلب المطالب، يمنع الناس

من العودة إلى العمل ويمنع دوران عجلة الإنتاج. أدهشتني وجهة النظر الأخيرة هذه، وسألت الناس الذين يتبنونها: كيف ترى أن ألف شخص (وهم الباقون وعددهم صغير للغاية) يمنعون الأمة كاملة من العودة إلى العمل؟ إجابتهم كانت أن استمرار الضغط على النظام السياسي من ميدان التحرير تشغل أذهان الجميع، ويبقى القلق والانتظار للتغيرات الطارئة في الأحداث. طالما المظاهرات مستمرة، حتى ولو بأعداد قليلة- على حد قولهم- فلن يهدأ الناس ولن يعودوا إلى العمل. هناك رجل يعمل ببيع السيارات، قال إنه لم يعد إلى عمله لهذا السبب، بل لأنه لم يعد أحد يشتري سيارات مع استمرار الثورة. قال رجل آخر: "لو الحكومة الجديدة منفذتش وعودها، هأرجع أتظاهر هنا تاني. لكن لازم الأول نديها فرصة".

لكن في الواقع لم تكن هذه هي الأصوات الوحيدة، فالناس على أطراف الميدان ينقسمون بين من يريدون استمرار الاعتصام ومن يريدون انتهاءه، وكل منهم له رأي يقوله لغيره. مشهد مدهش ومثير من الحوار الجماعي. المناقشات ساخنة، لكن غير عدائية، بل رغم كل الاختلافات، ومع وجود القلق والتوتر، فالكثير من الناس كانوا يوضحون لي أن بإمكانهم الآن المناقشة والوصول إلى قرارات وآراء بحرية ودون خوف.

والاختلاف حول الاعتصام ليس بالاختلاف الطارئ أو الجديد، فنفس المناقشات التي أسمعها سبق وسمعتها يوم ١١ فبراير يوم رحيل مبارك. لكن المشكلة واضحة، فاعتصام التحرير له قوة ضغط كبيرة. السؤال المحير الذي على النشطاء أن يواجهوه الآن هو: كيف يحمون مشروعية الصراع الثوري القائم في أعين الناس الذين يريدون قبل أي شيء دوران عجلة الاقتصاد من جديد وحل مشكلة ارتفاع معدلات

الجريمة؟ هناك إجابات مختلفة على هذا السؤال، وبينما رأى البعض أن اليوم يوم جيد للعب الكرة، فهناك آخرون وجدوا أنه من الضروري الاستمرار في الاعتصام، وغيرهم رأوا ضرورة الخروج والنقاش مع من استمروا في الاعتصام.

ربما كانت مشكلة الجرائم والبلطجة هي سبب التوتر الأكبر في هذه اللحظة، جزئيًّا لوقوع جرائم جسيمة مثل السرقة المسلحة، وأيضًا لحقيقة انعدام النظام ببساطة، وتحدث معي الكثيرون عن الفوضى في المرور، لكن لا بد أن أقول إن اليوم لم أجد الحالة المرورية أكثر فوضى من حالها في القاهرة دائمًا. يقول (ك) إن هناك خوفًا في أوساط المتظاهرين أن يتحول هذا الإحساس إلى انتفاضة شعبية مضادة تستهدفهم. إعادة الشرطة إلى الشوارع لا تكفي وحدها لإعادة القانون والنظام، لأن الناس كفوا عن احترام الشرطة؛ لا بد أن يكسبوا هذا الاحترام أولاً، وستكون مهمة صعبة. واللجان الشعبية لا يمكنها على المدى الطويل أن تكون الحل، لأن الناس بحاجة إلى العودة إلى العمل والنوم. هذه على ما يبدو أول مهمة لا بد أن تتصدى لها حكومة عصام شرف الانتقالية.

مع كل هذا التوتر، هناك في الوقت نفسه الإحساس المدهش بالفخر في أوساط الناس، بغض النظر عن آرائهم، هناك مجموعة من الشبان في شارع شامبليون علقوا لافتة عند مدخل شارع اتجاه واحد، تُذكِّر السيارات بعدم السير عكس الاتجاه. كانوا يحرسون هذه النقطة ليتأكدوا من التزام الناس. وعبروا عن الفخر الشديد عندما التقطت صورة للافتة.

قال سائق تاكسي أقلني إلى ملعب كرة القدم إن ميدان التحرير "مشكلة"، وسألني بعد ذلك عن رأيي، إن كانت مصر ستنجح في تحقيق مستقبل أفضل مثل

الدول الآسيوية، وعن كيف ستعود كل الأموال التي سرقها مبارك وعصابته. هناك سائق تاكسي آخر أقلني أنا و(م) وصديق لنا في المساء نفسه، وكان فخورًا للغاية بما أنجزه المصريون، ومتفائل جدًا، لكنه لم يتوقع أن تتغير الأحوال بسرعة، قال: "إحنا نقدر نخلي بلدنا أحسن من أي بلد في أوروبا، نقدر على فكرة. لكن الموضوع ده هياخد وقت. ممكن الجيل ده ميلحقش، لكن جيل ولادنا وأحفادنا هيشوف اليوم ده. المشكلة دلوقت إن ٥٠% من الشعب فاهمين المسؤولية دي، لكن عندنا ناس كتيرة مش فاهمين لسه". مع نفس السائق، تحول النقاش مرة أخرى إلى مسألة الرئيس القادم. هل لا بد أن يكون رجلاً عجوزًا لا يمكنه البقاء طويلاً في السلطة لأنه لن يعيش طويلاً، أم أن يكون شابًا ونشيطًا؟ قال سائق التاكسي إنه لا فرق، لأن بغض النظر عن شخص الرئيس القادم، فسوف يضطر إلى الاستماع للشعب "لأننا عرفنا السكة لميدان التحرير خلاص، والناس كلها بقت تفهم في الفيس بوك ونظمنا نفسنا". وكان الرجال في مطعم سندوتشات الكبدة يتحدثون بفخر عن سقوط مبارك، ولم يكن رأيهم في رئيس الوزراء السابق أحمد شفيق سلبيًا. قلت لهم إن المتظاهرين في ويسكنسن بالولايات المتحدة فعلوا مثل تونس ومصر، وأسعدهم جدًا سماع هذا الكلام.

أحلى الأخبار أتركها للنهاية. من الأمس، هناك مظاهرات في شتى أنحاء مصر لمحاولة احتلال مقار أمن الدولة، جهاز الشرطة السرية الذي يخشاه ويكرهه الجميع. من المطالب الأساسية الباقية للمتظاهرين حل جهاز أمن الدولة، ويوم الجمعة أعلن وزير الداخلية أن أمن الدولة سيتوقف عن العمل وستُعاد هيكلته. لم يُرضِ هذا الكثير من المتظاهرين، لا سيما بعد توارد أنباء عن تمزيق الأوراق داخل المقرات وحرقها في

شتى أنحاء البلاد. بدأ الموضوع بالأمس في الإسكندرية، حيث مقدار الغضب أكبر، وبعد انتشار أخبار عن أن وزير الداخلية الأسبق حبيب العادلي أمر بالهجوم الإرهابي على كنيسة القديسين ليلة رأس السنة. كما شهد الأمس مظاهرات أمام مقر أمن الدولة في الجيزة، لكن أوقفت المظاهرات، ليس على يد الشرطة، بل الناس في اللجان الشعبية في تلك المنطقة، الذين كانوا أكثر قلقًا على سلامة المنطقة، وأرادوا منع المصادمات، إذ يمكن أن تتحطم السيارات وتتضرر الممتلكات.

والليلة وأنا أشرب الشاي مع (م) وصديق لنا، سمعت الخبر على الجزيرة: "المتظاهرون يحتلون مقر أمن الدولة الرئيسي في مدينة نصر". ووردت أنباء مماثلة من مقر أمن الدولة في ٦ أكتوبر، حيث حاصر المتظاهرون أمن الدولة طوال النهار. أخِذَت ملفات وأوراق، وأفرِج عن بعض السجناء. أحدهم خرج من مقر مدينة نصر اليوم، محتجز منذ ١٤ عامًا. وفي مدن أخرى وقعت محاولات لاحتلال مقار أمن الدولة، ولم يصادفها النجاح، وفي مدن أخرى سيطر الجيش على الوضع. في مدينة نصر و٦ أكتوبر تمكَّن المتظاهرون من أخذ ملفات وأجهزة كمبيوتر، وصوروا مقاطع فيديو في مقر الإسكندرية تُظهر أدوات التعذيب والأبواب العازلة للصوت في حجرات التعذيب. الأدلة التي حصلوا عليها ستؤدي إلى فضيحة في أوروبا أيضًا. فأجهزة الحاسب التي أخذوها من مدينة نصر قيل إن عليها برنامج يُدعى "جاما" وهو برنامج ألماني للتجسس على الإيميل والسكايب. هناك مقطع فيديو يظهر فيه سجين سابق يتحدث عن كيفية استخدام أدوات التعذيب. وأجزاء من أدوات التعذيب مصنوعة في ألمانيا.

اليوم يشهد سقوط أقسى ركن من أركان نظام مبارك وأكثرها شرًا. ومع سقوطه، فربما يسقط الكثير من الناس في مصر وخارجها.

الاثنين ٧ مارس ٢٠١١

تسريبات أمن الدولة ونظرية القلق

المناقشات بالأمس واليوم تدور بالأساس حول الوثائق التي أخذها المتظاهرون من مقرات أمن الدولة. ما حدث كالتالي: يوم الجمعة بعد انتشار أنباء عن التدمير على نطاق واسع للوثائق، احتل المتظاهرون مقر أمن الدولة في الإسكندرية. ويوم السبت، احتلوا ١٢ مقرًا آخرين في شتى أنحاء مصر، أهمهم مقر مدينة نصر ومقر ٦ أكتوبر. تبين أن المكاتب خالية مع دخولها، وجزء كبير من الوثائق مقطع ومحترق، لكن حصلوا على بعض الوثائق السليمة. وهنا تعقدت الأمور. بعض الملفات سُلمت للنائب العام مباشرة أو للجيش. لكن المتظاهرين أخذوا أيضًا الكثير من الوثائق التي أصبحت في أيدي أفراد ونُشر بعضها على الإنترنت منذ ليلة السبت. شبّه لي صحافي من أصدقائي الموضوع على أنه "بحر من الوثائق أغرق الإنترنت".

القيادة العسكرية منعت الصحف المصرية من نشر محتوى الوثائق، وتحاول الحكومة جمع الوثائق من الأفراد، لكن الناس بالفعل مسحوها مسحًا ضوئيًا وصوروها، ووضعوها على الإنترنت.

أصبحنا الآن نعرف تفاصيل كثيرة عن الأعمال القذرة لكبار شخصيات الحكومة ورجال الأعمال. هناك عدد من المخبرين من الشخصيات العامة عُرِفُوا. وأصبحنا نعرف أن الحركة السلفية التي زاد تأثيرها في مصر في أثناء السنوات العشر الماضية، كانت تتعاون مع أمن الدولة، التي حاولت استخدام السلفيين في الحد من

تأثير الإخوان المسلمين. وهذا يفسر قطعًا لماذا انحاز السلفيون إلى الحكومة قبل سقوط مبارك. وأصبحنا نعرف أن أمن الدولة أرسل رسالة إلى عمرو موسى، المرشح الرئاسي المحتمل يطلب منه فيها أن يذهب لتهدئة المتظاهرين. ونعرف أيضًا أن مفتي الجمهورية علي جمعة، أحد أهم الشخصيات الدينية في مصر، تورط في عشر زيجات سرية على الأقل. كما عرفنا أن أمن الدولة كان ما زال يعمل بكامل طاقته حتى يوم الجمعة، لأن الوثائق التي أُخذت من مدينة نصر كانت تشمل صورًا التقطت في ميدان التحرير اليوم السابق.

للأسف لم يستحوذ بعد على وثائق تدل على الممارسات غير القانونية لأمن الدولة، خصوصًا ممارسات التعذيب. يبدو أن الوثائق التي تضم أدلة إدانة ضد أمن الدولة هي أول ما تمزق وحُرِق، وما تبقى هو بالأساس ملفات الأفراد الذين تتابعهم أمن الدولة.

ولهذا ينظر الكثيرون إلى شلال وثائق أمن الدولة على الإنترنت بعين الشك، بينما فرح بعض أصدقائي لأن المعلومات أثبتت ما كانوا يعرفونه من أن المسؤولين عن البلد كانوا عصابة فاسدة متورطة في أقذر الأعمال، فكان بعضهم الآخر قلقًا. قال ناشط حقوق الإنسان سعد كامل إن الملفات الشخصية تضم بالأساس معلومات جُمِعَت لكي يستغلها أمن الدولة ضد الأفراد، ليست عن آرائهم السياسية، بل عن من الذين يدينون لهم بالنقود، وعن آرائهم الدينية، وممارساتهم الجنسية. ومُسِحت وصوِّرَت كل هذه الوثائق ووضعت على الإنترنت. ليست هذه بالمعلومات الهامة التي نحتاجها من أمن الدولة، فهذه هي الحياة الخاصة للناس كما كانوا يراقبونها. (م) أكثر شكًا. فرحته باحتلال أمن الدولة بالأمس ولَّت، وينظر إلى الموضوع الآن على أنه

أكبر إنجاز للثورة المضادة حتى تاريخه. يقول إن ما حدث مؤسف للغاية لأن أمن الدولة أهم جهة استخبارات في الدولة، ومن ثم فقد فقدنا معلومات كثيرة أكثر أهمية وحساسية، مثل المعلومات الخاصة بهوية الإرهابيين الحقيقيين، أو أن هذه المعلومات أصبحت في أيدي أفراد، ولأن الوثائق ستؤدي أيضًا إلى مشكلات كثيرة في العلاقات الاجتماعية للجميع، إذ سينشغل الكل في التعرف على مخبري أمن الدولة في محيطهم.

ملحوظة صغيرة الآن عن السلفيين، إذا كان الناس في الخارج يخشون الإخوان المسلمين، فقد اختاروا الفريق الخطأ ليقلقوا منه، الإخوان المسلمون يلعبون دورًا بنَّاءً في العملية الديمقراطية. المشكلة الحقيقية هي السلفيون، فقد كان موقفهم مواليًا لمبارك في أثناء الثورة وقبل ١١ فبراير (ومع وثائق أمن الدولة التي عرفها الكل، تبين أنهم فعلوا هذا لأنهم كانوا يعملون لصالح الحكومة). تغير الوضع الآن، فكانوا بحاجة إلى لحظة يعيدون فيها تجميع قواهم وفهم ما يجري. لكن الآن أصبحوا يدلون بأحاديث يقولون فيها إن الديمقراطية حرام في الإسلام، ويوزعون منشورات للمطالبة بأن تصبح مصر إمارة إسلامية، وكلام من هذا النوع. تضررت سمعتهم كثيرًا بسبب دورهم في أثناء المظاهرات (والكلام ضد الديمقراطية قطعًا ليس بالأمر المحبب للرأي العام في هذه اللحظة). لكنهم ما زال لهم مؤيدوهم ومن يتعاطفون معهم، الذين لا يصدقون هذه الأخبار، وبينما لن يتمكنوا من حشد دعم واسع، فيبدو أنهم سيلعبون دورًا تخريبيًا للغاية على مدار الشهور القادمة.

استمرارًا لسيناريو قلق الأمس، تحدثت بالأمس أيضًا مع ثلاثة أشخاص، لكل منهم رؤية مختلفة ورواية مغايرة للإحساس السائد في مصر بالقلق.

إحدى صديقاتي من جنوب القاهرة أبدت تشككًا بالغًا في المسار القائم للثورة، في رأيها سوف تصبح الثورة ثورة عندما يتم التحول الديمقراطي، لكنها لا ترى الشعب المصري ممثلاً في اعتصام التحرير، ما تراه في أحداث اللحظة صخبًا بالغًا بالأساس، فوضى ورغبة في الهدم بلا بناء؛ هي قلقة جدًا من زيادة معدلات الجرائم (وهي زائدة بالمعايير المصرية، إذ لم يكن هناك وجود تقريبًا للسرقات تحت تهديد السلاح) التي استمرت مرتفعة بعد ليلة النهب نهاية شهر يناير، ومثار قلقها الأول والأساسي يدور حول ضرورة وجود قوة شرطية قوية وحازمة. وبالنسبة إلى المستقبل، فهي تأمل في أن تصبح مصر دولة ديمقراطية يحكمها رئيس قوي يُتاح له الوقت والسلطات الكافية للضغط من أجل إجراء مشروعات الإصلاح الكبرى. وهي تفضل إجراء محاكمات للفساد، والبدء في التغيير الديمقراطي، بشرط توفير الاستمرارية والاستقرار. والثورة بالطبع تأتي بالتغيير، لكن لا تأتي بالاستمرارية ولا بالاستقرار، ومن تجربتها، أصبح القلق أسوأ، سألت كيف هذا، مقارنة بالركود العام في الحياة العامة مطلع شهر يناير، وحال الشوارع المزدحمة والآمنة حاليًا. قالت إن الوضع في مطلع فبراير كان صعبًا، لكن الآن أصبحت هذه الحالة الصعبة هي الوضع الدائم القائم، إذ أنه حتى وإن قل التوتر، فإزعاجه لها أكبر.

بينما وجدت صديقتي من جنوب القاهرة قلقة على قوة السلوك غير المسؤول الذي أتى به التغيير السريع، كان صديقي (س) الذي أمضى أغلب فترات الثورة في الإسكندرية وفي قريته منزعجًا وقلقًا للسبب المعاكس تمامًا. فقد تظاهر في سيدي بشر بالإسكندرية يوم جمعة الغضب (أعنف أيام الثورة) ورأى أشياءً بشعة تحدث للمتظاهرين على يد قوات الأمن، بشعة لدرجة أنه ما زال لا يريد الحديث عنها. مجرد

التفكير فيها يبكيه. ومنذ ذلك اليوم وهو يتظاهر كل يوم، وأحيانًا يصطحب زوجته وأطفاله للمظاهرات، وفي بعض الأيام وحده، إلى أن نفدت نقوده واضطر إلى العودة إلى قريته، وهناك كان أحد المبادرين بحملة تنظيف هي الأولى من سلسلة حملات تنظيف في قرى المنطقة، لكن هناك أيضًا صدمته مقاومة المؤيدين للنظام القديم، وكان التوتر لا يُحتمل؛ قال: "بعد اللي شفته في سيدي بشر قابلت ناس في القرية بيدافعوا عن الفساد والنظام". لم يعد يحتمل، وأصيب بانهيار عصبي، وبدأ مؤخرًا يتعافى.

أغلب من أقابلهم هذه الأيام لا يشككون في مسار الثورة، ولا هم قلقون للغاية بسبب بقايا النظام القديم، أغلبهم يعربون عن إحساس بالفخر والتفاؤل بما سيأتي، مصحوب بإحساس بالتوتر والقلق وشد الأعصاب. ومن واقع هذه الرؤية، ذهبت لمقابلة سعد كامل، المتخصص في علم النفس والناشط الحقوقي، وعرض عليَّ نظريته عن القلق الذي يجتاح مصر بعد الثورة.

يرى دكتور سعد أن القلق حالة عاطفية أساسية في الوضع الثوري القائم، إلا أنه يميز بين حالة التعاطف الملاصقة للوضع الثوري، والمشاعر الأكثر استدامة التي تتسم بها الحياة اليومية، والتي تعبر عنها الأغاني عادة. كانت مصر- على حد قول سعد- حبلى بالثورة منذ فترة طويلة، وقد شهدت السنوات العشر الماضية تطورات متعارضة أسهمت في إنجابها. على جانب، أصبح الشباب أكثر معرفة بالعالم الأوسع من حوله، ويقارن وضعه بما يراه في الإعلام، ويسأل: لِمَ لا يُتاح له المتُاح لشعوب العالم الأخرى من حوله؟ وعلى الجانب الآخر، زادت عجرفة نظام مبارك في قمعه لأي شيء يحد من ثروته أو سلطته، حتى أصبح التباين بين التوقعات ونطاق الحركة الفعلي أكبر من أي وقت.

هذا الإحساس ظهر في خطاب قوي وشعبي لا يتناوله الإعلام، تعبر عنه في رأي سعد أبلغ تعبير أغنية "الدنيا خربانة". وفي أثناء الثورة اتخذ هذا الإحساس طابعًا مقاومًا كما في أغنية "أنا ضد الحكومة"، يرى سعد أن نص الأغنية وأسلوب الراب لا يتفقان مع الذوق المصري، وهذا الانفصال في الجماليات الموسيقية يعني أيضًا انفصالاً عن المشاعر التي تحملها الموسيقى. هذه الموسيقى- في رأي سعد- تكشف عن تحول في الحالة العاطفية، تحول من الإحساس باشتياق الشخص إلى شخص آخر. الإحساس القديم بالاشتياق تعبر عنه حالة سماها "الشجن" في الأغنية، إحساس بالنقص هو في الوقت نفسه عزيز على النفس. الإحساس الجديد هو الإحساس بالقلق. أصبحت هذه الكلمة على لسان الجميع، يصفون بها الأوضاع الحالية. يرى سعد أن هذا القلق غير متصل بشكل مباشر بالمظاهرات أو الوضع الاقتصادي. في حيه السكني هناك الكثير من الشجار والمعارك على أسباب واهية. الناس قلقة، وهو قلق منبعه التغير في أسلوب أداء وعمل السلطات بشكل عام.

هذا القلق، على حد قول سعد، هو تعبير عن "افتقاد السلطة"، (بحسب منهج لاكان في التحليل النفسي). الافتقاد عند لاكان هو ركن أساسي من الصورة التي نتخيل أنفسنا عليها، يُبنى من التفاعل مع ما يحيط بنا من معطيات، من صورتنا في المرآة. هذا الركن لا يكتمل مطلقًا، لأن المرء لا يرى نفسه كاملاً، بل يبني إحساسه بذاته عن طريق ما هو مُتخيَّل، ودائمًا ما يتوفر في هذا البناء إحساس بالافتقاد. السلطة الأبوية التقليدية (التي في رأي سعد تمارسها بالأساس السيدات عن طريق تفويض هذه السلطة للرجال) تعتبر في حد ذاتها حلاً، إذ توفر إحساسًا بالسلطة، لكن الآن أصبحت هذه السلطة في هذه الفترة مرفوضة أو مفقودة،

فالمتظاهرون لا يقودهم زعيم معارضة قوي، بل هم أرادوا التخلص من فكرة الزعماء؛ أصبحت الآن أي سلطة لزعيم أو قائد موضع شك ومثار تساؤلات، من الحكومة وحتى مدرسة القرية. يؤدي هذا إلى إحساس وجودي بالقلق، هو في رأي سعد يختلف عن الإحساس العابر بالثورة، بل هو بالأساس حالة حداثية أصيلة يدخل فيها المرء. والديمقراطية (التي تتسم بفرض حدود على السلطة عن طريق الانتخابات والفصل بين السلطات) هي النظام السياسي المعبر عن حالة القلق الحداثية هذه.

سألت دكتور سعد إلى أين يؤدي هذا التطور. ضحك وقال: "احنا هنا عشان نشوف".

ليلة الأمس غادرت القاهرة، ووصلت إلى قرية في شمال الدلتا، حيث بدأت الثورة بعد فترة من بدايتها في القاهرة، وهي تأخذ مسارها كاملاً حاليًا. شهدت الأسابيع الماضية حملة تنظيف، ومحاولة من مؤيدي النظام القديم للتقليل من شأنها ونزع المصداقية عنها، ورأت اعتصامًا في المجلس المحلي لبلدة قريبة، ويومين من المظاهرات في مدرسة إعدادية، والمزيد قادم.

وأنا أكتب هذه السطور، هناك مجموعة من الرجال في الحجرة المجاورة يخططون لحملة التنظيف التالية.

الثلاثاء ٨ مارس ٢٠١١

ثوار القرية

القرية التي ينحدر منها عدد كبير من أصدقائي لها تاريخ في النشاط السياسي، وفيها الكثير من المؤيدين لليسار وللإخوان المسلمين. لم أندهش إذن عندما عرفت أنها من أول المناطق التي انطلقت فيها تفاعلات الثورة بعد خلع مبارك. بدأ الموضوع بحملة تنظيف في القرية، وبلغ ذروته في اعتصام بمجلس المدينة في بلدة قريبة. بدأت الحركة (الآخذة في اكتساب الدعم الشعبي) على يد مجموعة من شباب اليسار. كان اثنان منهم قد تظاهرا في التحرير في اليوم الأول، ٢٥ يناير، وهناك آخرون تظاهروا في القاهرة والإسكندرية على مدار الثورة. في ١٠ فبراير، الليلة التي توقع فيها الجميع رحيل مبارك لكنه لم يرحل، قرروا السفر إلى القاهرة والبقاء فيها إلى أن يرحل مبارك، لكن أدركوا أن ليس معهم نقود كافية للسفر إلى القاهرة والإقامة. من ثم قرروا أن يجمعوا النقود فيما بينهم وأن يرسلوا منهم وفدًا من أربعة أشخاص إلى الإسكندرية. لم يتمكن واحد منهم من الذهاب لأن أمه خبأت بطاقته خوفًا على حياته. لكن الثلاثة الآخرين ذهبوا، ووصلوا وقت تجمع مظاهرة حاشدة في الإسكندرية في المساء الذي شهد رحيل مبارك.

بعد أن نجحت الموجة الثورية الأولى على مستوى الأمة، قرروا نقل الثورة إلى قريتهم، ومن ساعتها وأنا أتلقى فيضًا من الأخبار عن تحركاتهم. بالأمس وصلت إلى بيت صديقي لأجد جدران البيت الخارجية مغطاة بشعارات معارضة لمبارك، وحجرة

الضيوف تحولت إلى نقطة التقاء لثوار القرية، وعلى المائدة أوراق مدونة فيها بيانات ومطالب، وهناك كمبيوتر متصل بالإنترنت، ورأيت مجموعة من الرجال من مختلف الأعمار مجتمعة هنا، يناقشون ويخططون. زوجة (س) (التي خرجت بدورها إلى شوارع الإسكندرية مع أطفالها في واحدة من المظاهرات) تقدم لهم الشاي، والأطفال يلعبون في الصالة، ويرددون من حين إلى آخر شعارات ضد النظام.

وصلت إلى هنا ليلة الأمس وجلست في حجرة الضيوف حتى ساعات الصباح الأولى، نتبادل الأخبار والخبرات مع الرجال، وبعضهم من أصدقائي القدامى، وبعضهم وجوه جديدة، رأيتهم في غاية الفخر بنشاطهم في القرية (رغم أن الكثير من الحواري التي نظفوها عادت فامتلأت بالقمامة من جديد، بما أن أشخاصًا كثيرين في القرية لم تتغير عاداتهم)، هم فخورون تحديدًا لأنهم أول من بادر بحملة من هذا النوع في المنطقة، وسرعان ما حذت القرى الأخرى حذوهم، وكذلك المركز القريب. في المركز قاد الحملة رئيس مجلس المدينة الذي واجهه سكان القرية في اعتصام بتاريخ ٢٣ فبراير، يبدو أنه قرر أن يركب موجة الثورة بعد المقاومة الشرسة التي واجهها. الخطوة التالية لثوار القرية هي الإعلان عن حملة تنظيف تبدأ غدًا الثلاثاء، مع تنظيف منطقة المقابر، سوف أشارك فيها، بعد ذلك مستقبل الحملة مفتوح، لأنها- إلى حد كبير- من تنفيذ طلاب وتلاميذ سيعودون إلى المدارس والجامعات هذا الأسبوع.

وبعد حملة التنظيف والاعتصام ومرحلة إهانات واتهامات مؤيدي النظام القديم الأسبوع الماضي، كان الحدث الثوري التالي في القرية هو سلسلة من المظاهرات في المدارس. بدأت في ٢ مارس في مدرسة إعدادية للبنين احتجاجًا على الناظر الجديد. الناظر القديم رحل إلى مدرسة أخرى، فرفع معلم كبير كان في المدرسة ويحبه المدرسون

والطلبة قضية ليتولى المنصب. في الوقت نفسه، اشترى ناظر لمدرسة خارج القرية شهادة طبية مزيفة بأن عليه العمل على مقربة من بيته لأسباب صحية، ونال منصب الناظر ضد اللوائح، لأن هذا النقل لا يُسمح به، وهناك قضية مرفوعة في نزاع على من يتولى المنصب؛ نظم المؤيدون للمعلم من التلاميذ والمدرسين مظاهرة في فناء المدرسة، وفي اليوم التالي جاء المدرس مع أقاربه ليتولى المنصب بالقوة، لكنه أخرج، وأحيل الموقف الآن إلى المجلس القروي، الذي سيحيلها بدوره إلى وزارة التربية والتعليم. وفي الوقت نفسه، ما زال منصب الناظر شاغرًا. وفي المدرسة الثانوية بدورها بدأت مظاهرة لاستعادة مصروفات المدارس، لكن لم تنجح نجاح المظاهرة في المدرسة الإعدادية.

الحاج (ف) هو أحد الشخصيات البارزة من ثوار القرية، وهو مدرس يبلغ من العمر نحو خمسين عامًا. يقول (ف) إن بعض الناس أطلقوا عليهم اسم شباب ٢٣ فبراير على خلفية اعتصامهم في المركز يوم ٢٣ فبراير. سألته: "طيب يا حاج، ما إحساسك لكونك من الشباب؟" نظر إلى السؤال على أنه مزحة ومديح في الوقت نفسه. هناك بلا شك قدر من السخرية في لفظ "شباب الثورة" لأن الثورة جمعت الناس من مختلف الأعمار، ووجود الناس من مختلف الأعمار ضروري للغاية لنجاحها، بينما قابلية الشباب في الأيام الأولى كانت أكبر للتصدي للمخاطر، وطاقتهم ضرورية لاستمرار الحركة، فهناك مهام أخرى تحتاج الرجال الأكبر سنًا. مهمة الحاج (ف) هي بث الرسالة في المساجد، حتى يتمكنون من استخدام مكبرات الصوت فيها لتعريف الناس بحملة التنظيف في الغد. الموضوع يحتاج إلى شخص صاحب سلطة مدرس للتصدي للمعارضة المحتملة وللأسئلة الغبية.

اجتمع اليوم عدد من الناشطين برئيس المجلس المحلي في القرية، وعلى النقيض من رئيس مجلس المدينة بالمركز القريب الذي رفض استقبالهم بتكبر، فإن رئيس المجلس المحلي في القرية (وهو مُعين كغيره من رؤساء المجالس المحلية ولم يأتِ بالانتخاب) تعامل معهم بجديَّة، وقيل لي إن الاجتماع كان مثمرًا للغاية. فيما يلي قائمة بالقضايا التي تناولوها، نقلتها من محضر للاجتماع كتبوه بخط اليد:

١. جودة وتوزيع الخبز المدعم: في هذا الموضوع هناك معاناة مستمرة منذ فترة طويلة من شبكات الفساد التابعة للحزب الوطني وأعضائه. وبالفعل أحرزوا نجاحًا كبيرًا وبدأ العمل بنظام توزيع جديد. مشكلة الجودة ما زالت لم تُحل.

٢. نظافة الشوارع: عرضت مجموعة النشطاء أن تشارك، لكنهم طلبوا أيضًا خطة واضحة من إدارة القرية للتنظيف.

٣. الكهرباء: مطالب بعدالة توزيع الكهرباء بين القرية والمركز القريب منها، ونظام للفواتير يسهل بموجبه التنبؤ بقيمة الفاتورة، ومطالب بمعلومات عن أسباب انقطاع الكهرباء.

٤. مياه الشرب: مطالب بعمليات تنظيف أكثر لفلاتر المياه وإشراف أفضل على هذه العملية.

٥. المقابر: مطالب ببناء سور حول منطقة المقابر لفصلها عن المنازل المجاورة لها.

٦. مركز الشباب: مطلب بتغيير من يديرون المركز أو إلغاء المركز تمامًا، لأن طريقة إدارته الحالية لا تفيد الشباب.

٧. تخصيص منطقة لعمل موقف للأتوبيسات.

حماس وتصميم الشباب المشغول بإدخال الثورة قريته يتناقض كثيرًا مع ما رأيت فيهم قبل ذلك من إحساس بالملل والعدمية. قبل أكثر من ثلاث سنوات جئت إلى هنا لإجراء بحث ميداني عن الملل، وكل من تحدثت إليه تقريبًا كان يشتكي من أن لا شيء هنالك، وأن دوره يقتصر على الانتظار. للحظة على الأقل، وبالنسبة إلى بعض الشباب، تغيرت الأمور، وأصبح هناك إحساس بأن للحياة معنى، وهناك أكثر من مجرد الانتظار، لكن ما زال هناك وقت فراغ كبير. بما أن الاجتماعات تنعقد في وقت متأخر مع عودة الناس من شؤونهم اليومية في وقت الفراغ، فإن كمبيوتر (ب) (الذي عمل عامين في بلدان الخليج الغنية، وكانت النقود التي ربحها كافية لشراء لاب توب ومحمول) مجهز بباقة جيدة من ألعاب الكمبيوتر. وبحسب تعليق أحد الشبان: "لأنها ثورة شباب".

الوضع في القرية يختلف من عدة أوجه عن الوضع في المدن، الناس هنا يبدون الفخر والفرحة بسلمية الثورة في مصر، القلق على الأمن وارتفاع معدلات الجريمة التي رأيتها في القاهرة غائبة هنا، لم يؤثر انسحاب الشرطة في ٢٨ يناير على الريف؛ حضور الشرطة هنا ليس كبيرًا، والناس تتولى مسألة الأمن بنفسها، من ثم فليس لسكان القرى أسباب للقلق من الجرائم والنهب. هناك حالات لاستيلاء أشخاص على متاجر فارغة أملاً في أن تمر فترة قبل أن يرفع عليهم أحد قضية، سواء الملاك أو المستأجرين، لكن الوضع في ليبيا أصاب الناس هنا اقتصاديًا، إذ أن دخل الناس في القرية يعتمد كثيرًا على العمالة المهاجرة. عاد مهاجرون كثيرون من ليبيا، وهناك آخرون ما زالوا فيها، في وضع صعب للغاية. عاد صهر صديق لي من ليبيا نفس ليلة وصولي من القاهرة، وكان قد عاد من تونس على متن طائرة نقل عسكرية، وكان

برفقة أصدقاء له قد هربوا من طرابلس بمساعدة أصحاب عملهم، لكن على الحدود هاجمتهم قوات موالية للقذافي وأخذت أموالهم وحقائبهم، ووجدوا أنفسهم في تونس خاويي الوفاض، لكنهم سعداء لأنهم على قيد الحياة.

مع استمرار تدهور الوضع الاقتصادي، وعدم وجود احتمالات لتحسنه، يشعر الشباب بالحاجة إلى الهجرة، لكن المشكلة، إلى أين؟ مع سلسلة الثورات التي بدأت، من يعرف ما هي الدولة التي ستشهد الثورة التالية؟ لكن بينما هناك إحساس منتشر بالارتباك الاقتصادي يضغط على الناس، فهناك إحساس قوي بالإمكانات المتاحة أيضًا، و"شباب" الثورة (كما قلنا الشباب هنا يشمل أشخاصًا يبلغون الخمسين) يشعر أنه أخيرًا يفعل شيئًا له معنى. مطالبهم بتحسين أوضاع السياسة المحلية هي مطالب براجماتية وبسيطة، فهم مهتمون بتوزيع وجودة الخبز، وجمع القمامة، ومياه الشرب، والنقل الداخلي... إلخ.

لكن طعم الحياة عند الناس يختلف عن ما لمسته منهم من قبل. قبل ثلاثة أعوام ونصف– كما قلت– كنت هنا ولم أرَ إلا صورة من الإحساس بالعدم، وكلام من قبيل "الدنيا خربانة" "مفيش فايدة". كان التدين يوفر شيئًا من المعنى، لكنه هو الآخر حل محدود، وكان المهرب عند البعض هو العمل الإبداعي أو الهروب في رحلات خيالية. عمومًا هو إحساس بالملل الوجداني العميق، لكن الآن لا أرى أي ملل، فالشباب تجمعوا في حجرة الضيوف ينظمون حملات التنظيف، هذه لحظة لها معنى، والكثير من الشباب الذين رأيتهم يهدرون مواهبهم في حالة من الانتظار، تمكنوا أخيرًا من أن تكون لهم فائدة، على الأقل للحظة. الحياة أصبحت مختلفة عن حالهم في أثناء الجلوس على المقهى لقتل الفراغ، فها هم يفكرون كيف ينظمون

الحملات ويناقشون الفرق بين النظم الرئاسية والبرلمانية، وهم يعرفون أنها ليست مناقشة نظرية، بل أمر مطروح وعملي وقائم.

وغدًا لناظره قريب...

الأربعاء ٩ مارس ٢٠١١

ما العمل؟

هذه هي أيام القلق في مصر، مع تحولها ببطء من حالة الثورة إلى حالة الفترة الانتقالية، والأمور تتحرك. بعض هذه الحركة إيجابي، وبعضها خطير. في القرية التي أقيم فيها هذه الأيام، أرى الناس مشغولين، يسألون أنفسهم: ما العمل؟

بدأت منذ الأمس نوة، وجاء معها الطقس البارد من البحر.. أمطار ورياح على القرية، واليوم أغلب الناس في البيوت تحت الأغطية إن تيسر لهم هذا. لكن عصر الأمس كانت الشمس ساطعة والجو معتدل، وهو طقس ملائم جدًا لحملة التنظيف في منطقة المقابر في القرية. قبل أسبوعين نظم مجموعة نشطاء حملة تنظيف شاملة نجحت في كسب الكثير من الناس، بينهم العمدة ورئيس المجلس القروي. لكن بعد حملة الإهانات التي تعرضوا لها من مؤيدي النظام القديم، بدأ النشطاء يعملون بشيء من الحذر، وليس بنفس الحماس. النتيجة أن الإعلانات لهذه الجولة من حملة التنظيف كانت قليلة. في العصر، خرج نحو عشرين إلى ثلاثين شخصًا، وراءهم مجموعة كبيرة من الأطفال، وسيدة واحدة من الحي، كان الحشد المشارك من الرجال، وأغلبهم ينتمون إلى مجموعة النشطاء، نظموا لحضور سيارة تابعة للهيئة المحلية لتنظيف الشوارع من المركز، وعلى مدار اليوم كانت تُملأ بالقمامة والعصي والجريد من منطقة المقابر.

تبين أن تنظيف منطقة المقابر أصعب بكثير من تنظيف الشوارع، لأنها ممتلئة بالقمامة والطوب والحجارة. استمر التنظيف في بطء، ومع حلول الظلام كان نحو ثلث المنطقة قد نُظف. أحس النشطاء بقدر ضئيل من الحسرة بسبب قلة عدد من انضموا إلى الحملة (رغم أن العدد كان أكبر بكثير من حملة التنظيف في القرية المجاورة)، لكن قرروا استخدام هذه الحملة للإعلان عن الجولة الجديدة يوم الجمعة، إذ نادوا في الناس أن ينضموا إلى تنظيف المقابر بعد صلاة الجمعة. اقترض (س) كاميرا فيديو وصور أعمال التنظيف، واليوم قضينا أغلب فترة الظهر وبعد الظهر في عمل مونتاج لمقطع الفيديو من أجل عرضه على الناس لدعوتهم إلى حضور اجتماع عام في مجلس القرية يوم الخميس وإلى جولة التنظيف يوم الجمعة.

الناس الذين نظموا الحملة يرون أن الهدف الأول لحملة التنظيف هذه هو توعية الناس وحشدهم للاهتمام بشؤونهم المحلية. لا تبدو الأمور سيئة للغاية في القرية، فهناك قاعدة كبيرة بما يكفي من النشطاء، وتعاطف شعبي كافٍ، ورئيس مجلس محلي متعاون، أما في القرية المجاورة التي زرتها زيارة قصيرة بالأمس، فالأمور أصعب بكثير، قابلت شابين نظما حملة تنظيف هناك، لكن لم ينضم إليها إلا العدد القليل، ووصفوا أن أغلب شباب قريتهم ما زالوا في حالة لا مبالاة. النجاح الحقيقي للحملة في القرية التي أقيم فيها سيُرى غدًا في الاجتماع العام مع المجلس القروي وعدد من الأشخاص من الإدارة المحلية. الجميع مدعوون للحضور ومعهم مشكلاتهم وطلباتهم، وقبل ساعة من الآن طرقت مجموعة من فتيات المدرسة الثانوية على الباب يسألن إن كانت البنات ستشارك، كانت الإجابة بنعم، الكل مرحب بهم لمناقشة شكاواهم. لكن سنرى إن كان الناس من الإدارة المحلية سيحضرون غدًا حقًا.

الغد إذن سيخصص لمناقشة الواجب عمله بخصوص الإدارة، وتوزيع الخبز والمرافق العامة للقرية، لكن من الآن إلى الغد يبحث الناس أيضًا عن حلول لمشكلات ضاغطة، بعضها شخصية، وبعضها على مستوى الشأن العام في مصر.

من القضايا الهامة الاستفتاء على التعديلات الدستورية المعلن انعقاده في ١٩ مارس. على مدار اليومين الماضيين رأيت هذا الموضوع محل نقاش. يعارض أصدقائي الثوريون إلى حد بعيد التعديلات ويودون بدايةً أن يوضع دستور جديد تمامًا. هناك آخرون منشغلون باستطلاع الآراء لتكوين رأي. حماة (س) أميَّة، لكنها أصبحت مهتمة للغاية بالسياسة على مدار الثورة، وتسألنا عن معنى التعديلات، وما معنى التصويت بنعم أو بلا.

عصر الأمس قابلت (هـ) وهو محامٍ يعيش في القرية ويعمل في بلدة قريبة منذ عامين، وهو عضو بمنظمة محلية لحقوق الإنسان تمكنَتْ من بناء حوار مع أهل المنطقة وأصبحوا يثقون فيها. يقول إن نجاح الثورة مبالغ في تقديره، يقول إن لا أحد كان يمنعه من إبداء رأيه قبل الثورة مثلاً، لأنه يعرف كيف يوصل الرسالة بشكل صحيح ويتفادى الصدام مع النظام، وهو ليس مسرورًا بما وصفه بالمسار الفوضوي المفاجئ للأحداث، وعلى النقيض من كثيرين غيره يلومون جهاز الأمن على حالة الفوضى، فهو يلقي اللوم على المصريين أنفسهم، وينتقد عداءهم القائم لجهاز الشرطة، في رأيه، إن الشرطة ارتكبت أخطاء، لكنها تُلام على أكثر مما تتحمل من مسؤولية، لكونها الوجه الظاهر للحكومة، فهي مسؤولة عن أخطائها وأخطاء الآخرين.

سألته عن رأيه في الدستور. هو يعارض تعديل الدستور القديم، وسوف يصوِّت بلا في الاستفتاء القادم، وهي وجهة نظر يشاركه فيها الكثير ممن أعرف. يعتقد أن الأسلوب الذي يحاول من خلاله الجيش تحريك عجلة المرحلة الانتقالية سريعًا هو أسلوب مثير للتساؤلات. يتحدث من وجهة نظر المحامي والقاضي تحديدًا، ويطالب بمعايير دستورية موثوقة وليس تعديلاً مشروطًا بإعداد دستور جديد العام القادم. يسألني: "ليه منعملش الدستور من دلوقت؟" ويرى أنه من الخطأ وضع تعديلات على دستور ملغي بالفعل، ويرى ضرورة تشكيل لجنة دستورية، وهي لن تحتاج أكثر من شهرين لعرض الدستور الجديد، كما ينتقد سرعة عقد الانتخابات، وفي رأيه هذا يُصعِّب من عقد انتخابات حرة ونزيهة، وأخيرًا، فهو لديه شيء من الشك أيضًا في الحملة المستهدفة للفساد، لأنها في رأيه تركز على جزء من النظام القديم لا أكثر. ماذا عن المشير طنطاوي؟ أليس من رجال النظام القديم بدوره؟ لا أحد يتحدث عن نقوده وثروته. سألت (هـ) عن دوره في المرحلة المقبلة. أجاب: "أؤدي دوري بأني أساعد في العمل القضائي"، المحكمة في المركز تعمل من يوم الاثنين، لكن حتى الآن لم يفعل القضاة أكثر من إرجاء القضايا، ولا يريدون عقد أي جلسات إلى أن تعود حماية الشرطة، ولن يحدث هذا إلا بعد عشرة أيام أخرى على الأقل.

(هـ) له رؤية ناقدة واعية للثورة وللحكم العسكري، وآراؤه تنبع بالأساس من وجهة نظر ضرورة سيادة القانون، هذا أيضًا مرتبط بخبرته الشخصية. يوم جمعة الغضب كان في المركز يحاول تهدئة المتظاهرين الذين أرادوا إحراق المحكمة بعد أن انسحبت الشرطة. قارن سلوكه مثلاً بتجربة (س) الذي رأى في اليوم نفسه الشرطة

تقتل الناس في سيدي بشر. في رأي (س) إن إحساس الاضطراب وافتقاد الأمان الحالي مسموح باستمراره "عشان الناس تسامح الشرطة ونطلب منهم يرجعوا. لكن بعد اللي حصل لنا في سيدي بشر لا يمكن أسامحهم".

الجميع متفقون على أن استعادة القانون والنظام من أولويات اللحظة، لكن ما العمل تحديدًا؟ هذا سؤال مختلف كلية، وتختلف الإجابة عليه بحسب تقييم الشخص لأسباب افتقاد الأمان. هناك من يرون أن السبب في الاضطرابات هو السلوك المستهتر للناس الذين سمحوا لخلافاتهم القائمة من قبل الثورة بالتصاعد في أجواء القلق القائمة، ويتطلعون إلى العودة المنظمة للشرطة كي تهدئ الوضع. وهناك من يرون أن السبب في الاضطرابات هو قوى الثورة المضادة، أي الحزب الوطني وعناصر أمن الدولة، إذ ينشرون الشائعات ويحرضون على الاضطرابات، ويرون أن عودة الشرطة لن تحل المشكلة طالما الثورة المضادة نشطة. وأوضح لي آخرون أن الأسوأ من الاضطرابات القائمة هو الرعب الذي تبثه الشائعات، وأن أكبر مشكلة هي الخوف الكامن داخل الناس. كسرت ثورة ٢٥ يناير حاجز الخوف عند الكثيرين، لكن الخوف الوجودي، الخوف على سلامة الأسرة، هو خوف مختلف، وله أثر سلبي يؤدي إلى افتقاد الإحساس بالاستقرار، إذ أن من يشعرون بهذا الخوف يفضلون عدم الذهاب إلى العمل أو ارتياد أطفالهم المدارس.

الإحساس بالاضطراب زائد في هذه اللحظة. قبل يومين كان هناك اعتصام للمسيحيين، أيده بعض المسلمين، احتجاجًا على إحراق كنيسة في قرية بحلوان بسبب نزاع بدأ على خلفية علاقة بين رجل مسيحي وامرأة مسلمة. وبعد أن تخيل الناس أن المشكلة حُلت إثر وعد الجيش ببناء كنيسة جديدة، وقعت مصادمات في

منطقة المقطم، أثارها مجموعات من مسيحيين يعملون بجمع القمامة. قُتل ١٣ أو ١٤ شخصًا في المصادمات التي دامت يومين. الخبر السار هو أن الاحتجاج السلمي أمام ماسبيرو نجح في الضغط والإعلان عن مطالب عامة للمسيحيين بطريقة يمكن أن تكون بناءة. جولة المظاهرات المخطط لها الجمعة القادمة ستكون لدعم حكومة عصام شرف الانتقالية، لكن تغير عنوانها، وستتم تحت عنوان الوحدة الوطنية. وفي القرية، انتشرت أنباء عن أعمال سطو لعصابات وفوضى في الإسكندرية، ويخشى الكثير ممن يسكنون أطراف الإسكندرية الذهاب إلى المدينة. والناس في الإسكندرية ممن تحدثت إليهم في التليفون يقولون إن الوضع عادي تمامًا باستثناء بعض المواجهات بين عائلات يبدو أنها حرَّضت على موجة جديدة من الشائعات والترهيب. بالطبع فإن الخوف الذي تثيره الشائعات أسوأ من أي مشكلة حقيقية تحدث. أكبر الاضطرابات ليست في الشوارع، بل داخل قلوب الناس وفي علاقاتهم الحميمية. وهناك أيضًا إحساس قوي على مدار الأسابيع الأخيرة بأن الناس جميعًا متوترون.

لكن الأهم في القرية الآن هو: كيف ستمر هذه السنة مع الوضع الاقتصادي الصعب الذي يتوقعه الناس بشكل عام؟ هذا العصر قابلت (د)، وهو رجل تزوج حديثًا ويؤدي مختلف الأعمال، دائمًا عنده حلول عملية، يتوقع أن يمر عام قبل أن يستقر الوضع، وثلاثة أعوام حتى يتحسن الاقتصاد، ويتوقع بعد أربعة أعوام أن تتحسن حال البلد. وقتها، يخطط لبدء تجارة جديدة. هناك شباب كثير الآن يريدون فتح أعمال، لا سيما بعد توارد أنباء عن أن من هم فوق ٣٠ عامًا لن تُتاح لهم وظائف حكومية، بل منحة لبدء مشروع مع توفير إعانات بطالة مؤقتة. هو عمومًا يفضل العمل الحر على الوظيفة الحكومية، وبرخصة القيادة التي استخرجها، فهو يأمل

في مشروع تاكسي أو ميكروباص، لكنه لا يتوقع أن يُتاح له هذا حاليًا، ولكي يمر بهذه الفترة الصعبة، فسوف يعمل في السعودية، حصل على تأشيرة بالفعل، وينتظر المكالمة الأخيرة التي سيسافر بعدها، لكن الوضع بطيء هذه الأيام. عاد وسيط العمل إلى مصر قبل يومين، لكنه لم يبدأ عمله فورًا، بل ذهب لزيارة ميدان التحرير. يفكر كثيرون غيره في الهجرة حاليًا. هناك صورة متخيلة مشتركة بينهم: ستتحسن الأحوال في مصر، لكن بعد فترة، ولتجاوز هذه المدة لا بد من العمل في الخارج.

ظل (د) في القرية أغلب فترات الثورة، رغم أنه أراد الانضمام إلى الثورة ذات مرة. على حد قوله، تأثر كثيرًا بمشاهدة الأخبار طوال اليوم، فمرض أخيرًا وقال له الطبيب بأن يطفئ التلفزيون. بعد الهجوم على ميدان التحرير في ٢ فبراير أراد الانضمام إلى مجموعة من الأشخاص أغلبهم من الإخوان المسلمين، كانوا قد اعتزموا الانضمام إلى المظاهرات في القاهرة اليوم التالي (٤ فبراير). لكن عندما عاد أحد أبناء القرية من التحرير في ذلك اليوم، وكان قد شهد يوم الهجوم، ورأوا أنه أصيب إصابة جسيمة في كتفه برصاصة، خاف (د) الذهاب. أما المجموعة التي خرجت للانضمام إلى المظاهرات في القاهرة، فقد أوقفها الجيش على الطريق الدائري وأعادها. وفي ذلك اليوم كان الكثيرون قد حاولوا الانتقال إلى القاهرة لدعم المظاهرات لكنهم أعيدوا.

حكاية (د) عن كيف كاد أن يشارك في الثورة، هي حكاية الكثير ممن كانوا يخشون على أنفسهم، وأحسوا بالمسؤولية تجاه أسرهم، أو مُنعوا من الذهاب أو طالبهم آباؤهم بالعودة. هناك آخرون لم يفكروا حتى في الذهاب، وإن ظل الجميع أمام شاشات التلفزيون. واليوم هناك اتفاق واسع (وإن لم يكن إجماعًا) بين الناس على أنهم أنجزوا شيئًا استثنائيًا وهامًا. بالنسبة إلى من مكثوا في البيوت يشاهدون

التلفزيون، فهذا الإحساس بالإنجاز قابل للتساؤل. لكن حماة (س) على سبيل المثال تصر على أنها خَبِرَت الثورة وكأنها شاركت فيها، لما لديها من تعاطف بالغ معها. منذ بداية الثورة وهي جالسة أمام الشاشات، تشاهد الأخبار حتى ساعة متأخرة من الليل، غير قادرة على التوقف. وفي أثناء الثورة استغل أحد الجيران غياب الشرطة والقضاء واستولى على دكانها الذي كان خاويًا من البضاعة لفترة. بالنسبة إليها كانت هذه التجربة تضحية شبيهة بتضحيات الآخرين الأكبر كثيرًا، كانت تقول: "خسرت الدكان، لكن غيري كتير خسروا ولادهم". لم يعارضها (س) مباشرة، لكنه أضاف إليَّ إنه يكره أن يقول الناس إن الثورة ثورتهم بينما أمضوها "في البيت ملفوفين في البطانية" وهناك آخرون خاطروا بحياتهم في الشوارع. كانت صديقة مشتركة لنا من القاهرة قد خرجت إلى الشوارع منذ ٢٥ يناير، وشاركت في اعتصام التحرير، حتى اليوم، وتكتب على الفيس بوك تعليقات غاضبة عن من ينتقدون الاعتصام المستمر. (س) متعاطف مع غضبها ويشاركها وجهة نظرها.

وعلى مدار اليوم والمساء، تواترت أنباء مقلقة أكثر من ميدان التحرير. منذ إغلاق مقرات أمن الدولة، وهناك خوف متزايد من أن تعمل عناصر النظام القديم بشكل منهجي على بث الاضطرابات، وكان ميدان التحرير مؤخرًا هو المركز الأول لهذه المحاولات.

بالأمس خرجت مظاهرة لناشطات إلى الميدان، يتحدثن فيها عن مطالب بحق المرأة في المساواة، فتعرضت المظاهرة لرد فعل شرس من اعتداءات وهجمات، وكان رد الفعل على ما يبدو منظمًا وليس تفاعلاً عفويًا معها. صباح اليوم، هجم بلطجية مسلحون بالعصي والسلاح الأبيض، ورشقوا المعتصمين بالحجارة وحاولوا فض

الاعتصام ولم يصادفهم النجاح. ونظرًا إلى أن المطلب الأخير للاعتصام كان الحل التام لأمن الدولة وليس تعليق عمله أو إعادة هيكلته، فليس من الصعب تخيل السبب وراء الهجوم.

لكن المشكلة أن الاعتصام أصبح صغيرًا، وكثيرون ممن شاركوا في المظاهرات يفضلون الآن التوقف لفترة ورؤية ما ستقوم به الحكومة الجديدة. هذا الإحساس مشترك مع رأي مؤيدي النظام القديم الذين يزعمون أن الاعتصام يؤدي إلى الاضطرابات في البلاد، مما وضع الاعتصام في وضع حرج في أعين الرأي العام، الذي لم يعد منقسمًا ببساطة إلى مؤيدين ومعارضين للثورة، بل أيضًا انقسم إلى عدة آراء حول الواجب عمله لتجاوز تهديد عناصر النظام القديم. والسؤال الكبير هو: ما موقف المجلس العسكري؟ فبعد كل شيء، فهو نفسه جزء من النظام القديم.

الليلة فض الجيش بالقوة الاعتصام من ميدان التحرير. المجلس العسكري يحاول التخلص من الاعتصام منذ ١١ فبراير، وهذه هي ثالث عملية لفض الاعتصام. ظهرت أخبار عن فرض المجلس لحظر تجوال في ميدان التحرير والشوارع المحيطة به من التاسعة مساءً إلى السادسة صباحًا. يبدو أنهم جادون في فض الاعتصام، والبلطجية منذ الصباح، إن لم يكونوا في خدمتهم، فهم يمثلون حجة مفيدة للتدخل. هذه المرة ظهر أن محاولة إخلاء الميدان ستنجح لأن الاعتصام أصبح صغيرًا ومثيرًا للجدل. المنطق المبرر لما حدث هو أن بقاء الاعتصام في التحرير بعد الجمعة الأخيرة بعدد صغير من الناس ودون دعم قوي هو أمر غير حكيم، لأنه حوَّل الاعتصام إلى هدف سهل للثورة المضادة. إخلاء الميدان اليوم هو نصر لمن ظهرت هزيمتهم البيّنة الجمعة

الماضية، عندما تحدث رئيس الوزراء عصام شرف إلى المتظاهرين الذين اجتمعوا للاحتفال.

رؤية أصدقائي في القرية لما حدث أصعب، يقولون: "كدة الثورة باظت"، لكن ليس في يد أهل القرية التغيير من أمر ميدان التحرير، والجهود هنا تتركز على إصلاح الإدارة المحلية، لكن في القاهرة، سيعقد الناس عزمهم الليلة والغد على ما يجب عمله، وسوف يتضح الأمر خلال اليومين التاليين، خصوصًا الجمعة القادمة عندما ستخرج المظاهرات مرة أخرى إلى ميدان التحرير.

الخميس ١٠ مارس ٢٠١١

نجاح باهر وإخفاق ذريع

هذا اليوم من أيام الأخبار المتناقضة. بينما المجلس العسكري يدير ثورة مضادة قاسية في ميدان التحرير، أرى روح الديمقراطية في القرية قوية اليوم. مع زيادة المشكلات، ترتفع الأرواح المعنوية في القرية.

أبدأ بالأخبار السيئة. مساء الأمس فض الجيش بالقوة اعتصام التحرير بعد أن هاجمه بلطجية في وقت مبكر من اليوم نفسه. تبدو عملية جيدة التنسيق، إذ ذكر الإعلام أن الجيش تدخل بعد مصادمات بين مؤيدي ومعارضي الاعتصام، لكن الأنباء التي وصلتني نفس الليلة وظُهر اليوم ترسم صورة أقبح عن دور الجيش. هناك نحو ١٧٠ شخصًا من المشاركين في الاعتصام قُبِض عليهم، بينهم ١٧ امرأة. أفرِج عن الكثير منهم اليوم، وبعضهم تعرضوا لأعمال تعذيب جسيمة.

وما زال هناك آخرون رهن الاحتجاز، بينهم صديقي علي صبحي، الذي كان معنا أنا و(هـ) في وسط البلد وقت وقوع هجمات البلطجية على الميدان يومي ٢ و٣ فبراير. علي صبحي فنان ومهرج، وشارك في الثورة من بدايتها. هو حاليًا محتجز في النيابة العسكرية وقد يخضع لمحاكمة عسكرية. تستخدم المحاكم العسكرية حاليًا في إنزال أحكام سريعة للغاية بالأفراد بهدف فرض النظام والقانون، أو أن هذا هو ما يزعمونه. "جلسة المحكمة" لا تستغرق أكثر من خمس دقائق، ولا يحضرها شهود أو دفاع، والأحكام في الأغلب هي السجن خمس سنوات. أسوأ الأخبار وردت الليلة،

إذ ظهر على القناة الأولى صورة مكتوب تحتها "مجموعة من البلطجية قُبِض عليهم بالتحرير أمس". وفي الصف الأول يجلس مجموعة من الشبان، أيديهم مقيدة وراء ظهورهم، يجلسون على الأرض، وبينهم علي صبحي.

قبل أيام قليلة أدخل المجلس العسكري قانونًا يقضي بعقوبة الإعدام على جرائم "البلطجة" في محاولة لتهدئة الخوف من الجرائم والمجرمين. في أسوأ الحالات قد يواجه علي تهم البلطجة في محاولة من المجلس لتخويف المتظاهرين، مع إعطاء الرأي العام الانطباع بأنهم يحمونهم من البلطجية. الجيش المصري يلعب دورًا مزدوجًا مقلقًا، وهناك أسباب كافية للشك في نوايا قياداته الآن أكثر من أي وقت.

بدأ بعض الأصدقاء في حملة على الإنترنت لإطلاق سراح علي ومتظاهرين آخرين مقبوض عليهم، أملاً في أن تساعد الحملة مع وصولها إلى المستوى الدولي في ممارسة بعض الضغط على المجلس العسكري.

لكن بينما أخبار القاهرة اليوم مقلقة، أرى هنا طاقة إيجابية. في القرية هو يوم طيب، إذ يشهد اليوم عقد اجتماع مع رئيس المجلس المحلي، وبعده اجتماع طويل للثوار يتناقشون فيه حول "لماذا تحتاج مصر إلى دستور جديد؟".

بالأمس كان إحساس ثوار القرية السائد هو الإحباط والهزيمة مع انحسار إحساسهم بالحماس. كان المفترض أن تحدث أشياء كثيرة في اجتماع اليوم، لكن الطاقة شبه منعدمة. في اجتماع الصباح جاء (ب)، وجاء بعض الأصدقاء وسألوا لماذا لا توجد دعاية للاجتماع بتوزيع منشورات والدعوة إليه من منابر المساجد، واقتصرت الدعوة على الإنترنت. ثم عادت الحركة ببطء إلى طبيعتها، وسرعان ما انشغل الجميع بتصوير الأوراق وإحضار المظاريف، ثم ذهب البعض لتوزيع المنشورات

(موجهة إلى الأشخاص بأسمائهم). وعُرِض فيلم على الدش المركزي عن تنظيف منطقة المقابر؛ فجأة ارتفعت المعنويات من جديد.

مع انتقالي مع مجموعة الشبان النشطاء إلى مركز الشباب حيث سيُعقد الاجتماع، أحسست بأولى لحظات القلق. المركز ما زال مغلقًا، وأعلن رئيس المجلس المحلي أنه سيتأخر. ارتاب الناس في أنه يحاول تأخير حضوره عمدًا، ولم يحضر إلا قلة في البداية، ثم بدأ الناس يتوافدون، ثم وصل رئيس المجلس المحلي وسكرتيره بدورهما. ولم يأتِ المسؤولون من الإدارة المحلية، لكن وجود رئيس المجلس المحلي يكفي. زاد الحضور عن المائة فرد، وكلهم من الرجال (فتيات الثانوية اللاتي أعلنّ أنهن سيحضرن لم يفعلن)، وجلس الكبار في دائرة في الوسط وتحلق الشبان حولهم.

كان اجتماعًا غريبًا، عجائبيًا، في لحظة ترى النجاح الباهر، وفي نفس اللحظة ترى الإخفاق الذريع. في هذا الاجتماع فقط أدركت معنى أن يعيش المرء في مجتمع في حالة ثورة. مزيج من الإقرار والاحترام للسلطة مع الرفض الغاضب لكل أشكال السلطة، الحوار الحذر ثم الصياح الفوضوي.. لم يكن أحد يتخيل هذا قبل شهر.

رحَّب الناس ترحيبًا خاصًا برئيس المجلس المحلي وشيخ الجامع. حتى الآن يبدو أن إطار المجتمع الأبوي السلطوي ما زال متماسكًا. لكن النقاش بدأ ساخنًا، وبعد أن أعلن الأكبر سنًا وأصحاب المكانة الاجتماعية الأرفع عن بعض الملحوظات البناءة عن نظام توزيع الخبز في القرية، انبعثت موجة من النقد الغاضب من كل حدب وصوب. كان منظمو الاجتماع يريدون مناقشة الحلول الممكنة، لكن غضب الحضور الكامن الموجه إلى الفساد التام وعدم كفاية آليات إدارة القرية، جعلت من المستحيل الخوض في نقاش بنَّاء يصل إلى حلول، وبدلاً من هذا امتلأت أغلب فترات

الاجتماع بكورال غاضب وصاخب من النقد. حاول النشطاء المنظِّمون للاجتماع وبعض الرجال من الصف الأول مرة تلو المرة إعادة النقاش إلى موضوع المقترحات، وأكثر من مرة أدلى الحضور بتعليقات ومقترحات جيدة، وتمكَّن رئيس المجلس المحلي من الرد. وبعد فترة تحول الاجتماع مرة أخرى تجاه الصياح الغاضب العشوائي، ونحو نهاية الاجتماع زادت الفوضى. في النهاية تمكن المنظمون للاجتماع بشق الأنفس من القول بأنه من المتوقع من إدارة القرية أن تحفظ المقترحات الخاصة بتوزيع الخبز وأنابيب الغاز وتنظيف الشوارع، وأنها ستناقش مبادراتها لمعالجة هذه المشكلات في اجتماع عام قادم، في أول يوم خميس من شهر أبريل، ثم انفض الاجتماع، وتوجه البعض إلى البيوت، وتجمع البعض الآخر في حلقات صغيرة يتناقشون ويتجادلون في صخب.

كانت تقييمات النشطاء للاجتماع متعارضة. قال البعض إن طريقة الاجتماع الفوضوية إذ يريد الناس الكلام لا الاستماع، تثبت أن المصريين، بعد العيش تحت ظل القمع والخوف طويلاً، لم يتعلموا بعد كيف يستخدمون حريتهم بشكل مسؤول، وأن عليهم تعلُّم الكثير. كان الجميع ساخطين لأنهم لم يتمكنوا من مناقشة كل النقاط التي أرادوا مناقشتها، ولأنه من الصعب التوصل إلى مناقشة بناءة. لكنهم كانوا أيضًا سعداء للغاية لحضور أشخاص كثيرين، ولأن رئيس المجلس المحلي جاء، ولأن الناس جاؤوا ومعهم مشكلاتهم ومطالبهم، وتحدثوا في حرية دون خوف. يرى (س) أن الاجتماع ناجح وفاشل في نفس الوقت، هو فاشل إذ لم يتمكن الكثيرون من التفرقة بين النقاش الديمقراطي والفوضوي، وناجح لأنه لم يحدث من قبل أن اضطر رئيس المجلس المحلي إلى الإجابة على أسئلة جادة وانتقاد غاضب، وكانت الجلسات التي يحضرها من قبل تقتصر على المجاملات.

وعلى مستوى عملي بحت، ظهر مرة أخرى أنه من الضروري وجود مكبرات صوت جيدة ضمن أدوات الثورة. الطبيعة العشوائية للاجتماع سببها في الأغلب عدم وجود ميكروفون ومكبرات صوت، تيسر على شخص واحد أن يتحدث فيسمع الآخرون.

سواء كان الاجتماع عشوائيًا أو غير ذلك، فقد رفع معنويات النشطاء كثيرًا. نظموا بنجاح حدثًا هامًا، مناقشة عامة، وزال عنهم إحساس إحباط يوم الثلاثاء تمامًا.

بعد الاجتماع تجمع ١٢ رجلاً في حجرة ضيوف (س) لإجراء مناقشة بناءة وهادئة عن التعديلات الدستورية المقترحة.

وسط هذا الحشد يساري الرؤية، هناك إجماع تام على أن التعديلات الدستورية غير كافية بالمرة، وأن مصر تحتاج إلى دستور جديد أفضل بكثير قبل إجراء انتخابات. سوف يصوتون بـ "لا" في الاستفتاء على التعديلات. وهناك مناقشة طويلة وأكثر تفصيلاً دارت عن الدستور المصري، ومشكلاته، وعن مختلف أشكال الدساتير في التاريخ المصري (أكثرها ديمقراطية هو دستور ١٩٢٣) ودساتير الدول الأخرى، والإصلاحات التي يتوقعها الناس في الدستور الجديد. بدأ النقاش بكلمة طويلة لـ (أ. م.) وهو مدرس ماركسي ورجل مثقف مطّلع، قدم مقدمة طويلة في المفهوم العام للدستور. يرى (أ. م.) أن الثورة لم تلغِ الدستور فقط فعليًا، بل ألغاه النظام نفسه، إذ أصبحت الكثير من القوانين المصرية متعارضة معه. المثال الأوضح هو المادة ١ من الدستور التي ذكرت أن مصر دولة اشتراكية، وهو ما يتناقض تمامًا مع السياسات والقوانين الليبرالية الجديدة التي شهدتها العقود الأخيرة. بعد كلمة (أ. م.) توالت

الأسئلة والتعليقات، خصوصًا ما يخص سلطات الرئيس، والتي أبدى كل من في الحجرة الرغبة في الحد منها، معلنين التفضيل للنظام البرلماني. المعرفة الموسعة لـ (أ. م.) مقترنة بالأسئلة الانتقادية والمقترحات من الحضور، واللاب توب المتصل بالإنترنت للاطلاع على نص التعديلات المقترحة تحديدًا، سمحت بمستوى جيد للغاية من النقاش.

روح النقاش العامة كانت تفضل مصر ديمقراطية راديكالية تقودها حكومة برلمانية ورئيس تقتصر سلطاته على المهام الرمزية. انصب النقاش على أن الدستور الحالي تكيَّف ليخدم نظامًا فاسدًا، وإذا أرادت الثورة أن تحقق مطلبها الأساسي، وهو إسقاط النظام، فلا بد أن الدستور جزء من المشكلة. وأبدوا رأيًا مفاده أن التعديلات المقترحة هي استمرار للنظام القديم متنكرًا وراء المجلس العسكري، الذي يعتبر هو نفسه جزءًا من النظام القديم، وحليفًا متناقضًا للثورة على أفضل تقدير.

من المحتل أن هذا ليس رأي الأغلبية في مصر، ويبدو من المرجح أن التعديلات الدستورية ستمر مع نجاح الاستفتاء، وبعد الانتقال إلى حكومة مدنية، فسوف يحكم مصر رئيس مجهز بسلطات شبه مطلقة. لكن وسط ثوار القرية، رأيت إجماعًا قويًا على أنه لكي تنجح الثورة، فلا بد أن تضمن بقاء السلطة في يد الشعب. وعلى هذا الخط قال النشطاء إنهم يثقون كثيرًا في أن مصر لديها من الفقهاء الدستوريين من يقدرون على صياغة دستور جيد يخدم مصالح واحتياجات مصر.

كُلِّفْت بمهمة تسجيل النقاش كاملاً على الفيديو، ما أن أنتهي من كتابة هذه السطور، فسوف أقوم بتحميله على الإنترنت، حيث يأمل النشطاء أن يخدم في زيادة التوعية السياسية بشكل عام.

بعد أن كان الأمس هو يوم التوتر والإحباط، فاليوم هو يوم تجدد التفاؤل، رغم أن الحالة لم تتغير، وبينما الوضع أفضل مما كان قبل سقوط مبارك، فما زال غير جيد بما يكفي، فالآن أصبح من الواضح أن النظام لم يسقط حقًا، فما زال في السلطة على هيئة المجلس العسكري الذي يلعب دورًا معقدًا. لكن التغير في الحالة المعنوية يغير من الموقف إلى حد ما، وهذا هو جوهر الثورة. تحدثت في هذا الموضوع مع زوجة (س) التي- لأسباب شخصية جدًا- سعدت كثيرًا لانتهاء إحباط الأمس. اتفقت أنا وهي و(س) على أنه إذا كان الأمس يومًا صعبًا، "يوم غريب" على حد تعبير (ب)، فاليوم أفضل بكثير وإن كانت المشكلات القادمة أكبر. ليست الثورة فقط هي التي يمكن اعتبارها حالة مزاجية، بل الثورة المضادة أيضًا.

الجمعة ١١ مارس ٢٠١١

تثبيت السلطة.. للأسوأ أو للأفضل

اليوم خرجت من القرية متجهًا إلى الإسكندرية، ثاني أكبر المدن المصرية، وأحد أهم مراكز التظاهر في أثناء الثورة. في أثناء التظاهرات الكبرى أواخر يناير ومطلع فبراير كان عدد المتظاهرين في الإسكندرية مثل الأعداد في القاهرة، إن لم يكن أكبر، والقاهرة أكبر من الإسكندرية أربع مرات. في الإسكندرية استغرق الأمر فترة أطول حتى تهدأ الأوضاع، وهناك خوف بالغ من الجريمة، وسوف تمر فترة أطول قبل أن يعود الوضع "العادي". فتحت المدارس في أغلب مناطق مصر هذا الأسبوع، لكن ما زالت مغلقة في الإسكندرية لمدة أسبوع آخر. الليلة كانت الشوارع التجارية مزدحمة ومركز فتح الله التجاري في المنتزه (حيث أقيم) عامر بالناس. ما زالت واجهة المتجر محمية بجدار مؤقت من الطوب بعد أن كُسرت الفتارين ليلة ٢٨ يناير، لكن المحلات كلها مفتوحة.

مع عودة الوضع العادي إلى الإسكندرية وعودة الشرطة إلى الشوارع وسط حملة تعاطف واسعة مع الشرطة نظمها الإعلام الحكومي، تلقت الشرطة معاملة متباينة. بعد فترة من الخوف القوي من الجريمة، فإن ظهور الشرطة مُرحب به، لكن هذا الترحيب مشروط بالتعامل الإنساني مع الناس. صاحب البيت الذي يسكنه (س) الذي قابلناه في المركز التجاري ظهر عليه سلوك متناقض. على جانب قال إنه ساعد ضابط شرطة في استعادة سلطته في وجه سائقي الميكروباص الذين عاملوه

بعدم احترام. وعلى الجانب الآخر كان فخورًا للغاية وهو يعرض على الجميع فيديو على تليفونه يُظهر سكان منطقة قريبة يحملون على ظهر عربة نقل ضابط شرطة مصابًا إصابات جسيمة، وكان قد تورط في قتل متظاهرين وأمسكه سكان حي فقير قبل ثلاثة أيام وضربوه ضربًا مبرحًا وربما قتلوه.

كل من لديه كلمة يقولها في الإسكندرية هذه الأيام ويكتبها على الجدران: الإعدام للحرامية، تمت الثورة بنجاح، الثورة مستمرة، مسلم ومسيحي إيد واحدة، مصر دولة إسلامية، إحنا كلنا مصريين ولازم نحترم بعض، لا تنسوا شهداء الثورة... في الإسكندرية- المعقل القوي للسلفيين- هناك ملصقات كثيرة تطالب بدولة إسلامية، خصوصًا في الشوارع الجانبية، بينما على طريق الكورنيش هناك رسومات جدارية طويلة (رسمها متطوعون برعاية الإدارة المحلية ووكالة إعلان) للاحتفال بالثورة. هو مزيج عجيب من أشكال التعبير العفوي عن الرأي، والحركات السياسية والدينية التي تقدم وجهة نظرها، والمجلس العسكري والإدارة المحلية وهم يركبون موجة الثورة لتثبيت أقدامهم في السلطة.

في هذه اللحظة يتحدث الجميع باسم الثورة، لكن لأهداف متباينة تمام التباين. هناك حملة على الفيس بوك من تنظيم نشطاء الثورة، للإفراج عن المعتقلين في المظاهرات بميدان التحرير يوم الأربعاء. وجريدة الجمهورية المملوكة للدولة (أخلص صوت صحافي في عهد مبارك لمبارك) تتحدث عن مواطنين يتطوعون لتجديد وصيانة ميدان التحرير بعد الفض العنيف للاعتصام، وكأن هذا التجديد وهذه الصيانة هما الفعل المتمم للثورة. يوجد بوستر كبير مكتوب بخط اليد على مشارف الإسكندرية، يُذكِّر المارّين بأن الثورة لن تنتهي إلا مع القضاء على أمن الدولة نهائيًا ومع الإفراج

عن المعتقلين السياسيين. وهناك لافتة في ميدان رئيسي بالإسكندرية تهدف بوضوح إلى عودة الشرطة إلى الشوارع، تعلن أن الشعب والجيش والشرطة يد واحدة من أجل ثورة ٢٥ يناير. ويعقد المنتقدون للتعديلات الدستورية ندوات ومؤتمرات ويكتبون في الصحافة يطالبون بدستور جديد، لأنه ضروري لضمان نجاح الثورة ولضمان الاستقلال الحقيقي للقضاء. وعلى الكورنيش توزع منشورات باسم مجموعة لم يسمع بها أحد حتى الآن، هي "شباب المستقبل" تدعو الناس إلى التصويت بـ "نعم" حتى تكتمل الثورة.

بينما روح الأمل الثوري في كل مكان، فنحن ندخل الآن في مرحلة تثبيت أقدام السلطة، والمفاوضات، والمناقشات الدستورية، والحراك السياسي. بعد فترة اتسمت بالسعي وراء المطالب العامة للثورة واقتضت تنحية الاختلافات الحزبية جانبًا، فهناك مجموعات سياسية الآن تُروِّج لبرامجها، وبدأ المرشحون الرئاسيون حملاتهم، وبدأت مختلف الحركات في حشد المؤيدين. يمكن للمرء في الإسكندرية أن يرى هذا بنفسه على جدران البيوت، من بوسترات وجرافيتي ولافتات ومنشورات في كل مكان.

بالنظر إلى أحداث الأسبوع الماضي، استقالة أحمد شفيق ومجيئ عصام شرف مكانه وتجميد عمل أمن الدولة واحتلال المتظاهرين لمقراته، نجده كان أسبوعًا فاصلاً. بعد تلك اللحظة، ووسط مصادمات ومواجهات وخوف من الجرائم مع تطلع الناس لاستقرار الحال، تعرض اعتصام التحرير الذي كان يضغط من أجل تغيير النظام كله للضغط، وأصبحت الموجة القائمة الآن مختلفة، وهي موجة متناقضة إلى أبعد حد.

الثوار المخلصون للثورة يرون أن الحكومة العسكرية بادعائها بأنها مع الثورة وفي الوقت نفسه تعمل على الحد منها، فهي بذلك ترتكب ما يمكن وصفه بأنه ثورة

مضادة. هذا الرأي تراه بوفرة على الإنترنت وفي مناقشات وجلسات خاصة. لكن هناك تردد قوي في الصحافة المستقلة لذكر المشكلات الموجودة في الحكم العسكري: ثروته، وحقيقة أنه جزء محوري من النظام القديم، وانتهاكات حقوق الإنسان على يد الشرطة العسكرية. سألت صحافيًا من أصدقائي، إن كنت أنا من يتبنى نظرية المؤامرة، أم أن الصحافة تتفادى بعض الموضوعات بعينها، وقال إن المشكلة ليست فيَّ أنا.

خرجَت اليوم في الإسكندرية والقاهرة مظاهرات للوحدة الوطنية بين المسلمين والمسيحيين، في إطار سلسلة مظاهرات الجمعة القائمة منذ بدء الثورة. في القاهرة حيث وقعت مصادمات كانت المظاهرات كبيرة للغاية. لكن في الإسكندرية لم تظهر أنباء عن مصادمات رغم التوتر والقلق السائدين، وكانت مظاهرة اليوم صغيرة. أحد الأسباب هو أن أغلب الناس في الإسكندرية تعبوا بعض الشيء من التظاهر، وهناك سبب آخر، هو أن بعض النشطاء السياسيين يرون أن الحشد السياسي والتوعية أهم حاليًا من التظاهر.

كانت هذه النقطة الأخيرة هي وجهة نظر أصدقائي اليساريين الذين يديرون مركزًا ثقافيًا في وسط البلد بالقاهرة. مركزهم يخدم اليوم المتظاهرين في تحضير لافتاتهم، لكنهم هم أنفسهم مشغولون أكثر بالتفكير في كيفية الوصول إلى طلاب الجامعات والناس في الشوارع في مواجهة الاستفتاء ثم الانتخابات القادمة. الإسكندرية، المعقل القوي للسلفيين والإخوان المسلمين، فيها أيضًا الكثير من اللافتات التي تطالب بمصر إسلامية، ويرى أصدقائي في المركز الثقافي أن دورهم يتمثل في الدفع نحو أجندة علمانية يسارية أكثر، مع التركيز على قضايا المساواة في الحقوق والعدالة الاجتماعية. وهم الآن مشغولون كثيرًا بالتخطيط لحملة اللافتات والإعلانات.

بدأت الدراسة الجامعية في القاهرة الأسبوع الماضي، وتبدأ في الإسكندرية هذا الأسبوع. وقبل الثورة كان يحرس الجامعات الحرس الجامعي التابع لوزارة الداخلية، وينظر الطلاب إليهم بخوف وكراهية، هذه القوة حُلَّت الآن واستبدلت بخدمة أمن مدنية، أدى هذا إلى تحول الجامعات إلى حالة من النشاط السياسي المكثف. في جامعة القاهرة الأسبوع الماضي، راح الطلاب يطالبون بأن يكون رئيس الجامعة وعمداء الكليات بالانتخاب. هناك موجة من النشاط السياسي تجتاح الجامعات، وجميع الحركات السياسية، قديمها وجديدها، مشغولة بمحاولة لعب دور فيها.

بينما محاولات المجلس العسكري لتثبيت أقدامه ظاهرة وجليَّة، ويرحب بها كثيرون يتطلعون إلى أن تهدأ الأوضاع، فبالنسبة إلى أغلب الناس لم يقلل هذا من الإحساس بأنهم قد أصبحوا أخيرًا قادرين على التنفس بحرية وأنهم أصبحوا قادرين على الحلم. مع سيري مع (ب) على الكورنيش ينظر إلى البحر ويقول: "حتى البحر شكله اختلف بعد الثورة. الحاجات هي هي ما تغيرتش لكن نظرتك لها اتغيرت". في المركز الثقافي حيث يعمل الأصدقاء قابلت (ج) والتي رغم مخاوفها الكثيرة على مستقبل البلد مفعمة بالحماس والتفاؤل: "في السنين اللي فاتت البلد اتقمعت لدرجة إن الواحد ما كانش عايز يصحى من النوم الصبح. دلوقت أخيرًا أقدر أحلم. مش عايزة كتير، عايزة بس العالم العربي يبقى مكان كويس، مش عايزة يوتوبيا، مجرد مكان معقول أقدر أسافر فيه وأتنقل بحرية والناس تعيش فيه بسلام". روح الحرية بمعناها الأوسع، وتشمل حرية تعريف ما تعنيه الحرية.. هذا الإحساس قوي للغاية هذه الأيام.

لكن أنتهي بكلمات أكثر تشاؤمًا. علي صبحي والمتظاهرون الآخرون الذين قُبِض عليهم في ٩ مارس من ميدان التحرير ما زالوا محتجزين. آخر شاهد رأى علي يُنقل إلى السجن الحربي وكان في حالة بدنية صعبة، تبدو عليه آثار تعذيب. والأسوأ أن هناك تقارير عن اعتقال أشخاص آخرين اليوم، في عملية يبدو أنها استهدفت قيادات اعتصام التحرير. هذه العملية تلقي بظلال أسوأ على دور المجلس العسكري، وتؤدي إلى التشكيك في إمكانية استمرار حملة تثبيت أقدام السلطة العسكرية التي تقودها صحافة الدولة، وإمكانية استمرار صمت الصحافة المستقلة.. هناك خطر جسيم يهدد هذه الحرية الوليدة.

الثلاثاء ١٥ مارس ٢٠١١

فترة انتقالية... إلى أين؟

اتسمت الأيام القليلة الماضية في مصر بالانتقال من مرحلة القلق الثوري إلى مرحلة "الحالة العادية" المتناقضة، مع ظهور قضايا ومشكلات جديدة تمامًا. السؤال الآن هو: كيف يتغير المجتمع وإلى أي اتجاه؟ الآراء تختلف كثيرًا في الإجابة على هذا التساؤل.

ماذا نكتب؟

قابلت يوم السبت ١٢ مارس مجموعة من الكُتّاب الشباب في مكتبة صغيرة في الإسكندرية، لمناقشة دوافع الكتابة، تحول النقاش إلى الحديث عن الاهتمامات المشتركة للحضور: كيف تغير الكتابة من العالم؟

أعتزم الحضور إلى مصر في الخريف القادم لإجراء بحوث ميدانية جديدة عن المنشغلين بالكتابة، سواء الشعر أو القصة القصيرة أو المدونات أو الروايات أو الأعمال الساخرة. هو مشروع ما زال في طور الإعداد، عن الكتابة في حد ذاتها كممارسة اجتماعية وإبداعية، عن أهميتها كممارسة يومية، والعلاقات التي يبنيها شباب الكتاب البادئين في الكتابة من خلال كتاباتهم. إحدى من ناقشت معهن هذا الموضوع من قبل هي (ز). هي مُدرِّسة من الإسكندرية تكتب القصة القصيرة، عرضت عليّ تنظيم اجتماع مع بعض الأصدقاء من المهتمين بالأدب، التقينا ظهر السبت في مكتبة صغيرة قريبة من الجامعة، لم أندهش عندما وجدت الثورة في تفكير

الجميع، وبدلاً من الحديث عن الثورة في حد ذاتها، ناقشنا سؤال كيف تغير الكتابة من العالم، وما الذي يمكن للمرء أن يكتبه الآن. كان هناك سيل من الكتب تصف بشكل انتقادي الوضع الاجتماعي في مصر على مدار السنوات الماضية، وأغلبها على هيئة كتب ساخرة وروايات حققت أعلى المبيعات، مثل أعمال علاء الأسواني. تُكتب هذه الكتب عادة بأسلوب يسير سلس وينظر إليها الكثير من المثقفين باستخفاف (لا يعتبر الأسواني روائيًا جادًا في نظر نقاد الأدب العربي)، لكن هذه الأعمال أسهمت في الزيادة الكبيرة في المقروئية والنشر. باختصار، كان النقد الاجتماعي من مفاتيح الكتابة الأساسية على مدار السنوات الأخيرة، وهذا يضع الكتاب الشباب في موقف هم فيه على اتساق بالغ مع الوضع، وعليهم على الجانب الآخر أن يغيروا موقفهم من الكتابة.

يقول عمرو عز الدين الذي كتب ثلاثة كتب ساخرة إنه في الوقت الحالي يواجه مشكلة، إذ عليه تغيير منهجه في الكتابة. دأب على انتقاد النظام فيما كان يتخذ من إجراءات يومية، لكنه الآن يريد أن يضع يديه على أساليب جديدة للبناء. إسلام مصباح الذي كتب روايتين، أولاهما عن ثورة دموية وعنيفة في مصر، يقول: "الثورة وقفت سوق كتبي. مش عارف أكتب إيه دلوقت". نشر شمعي أسعد كتابًا يستند إلى مدونة، بهدف إطلاع المسلمين على الحياة اليومية للمسيحيين، وهم لا يعرفون إلا القليل عن المسيحيين. ينصب تركيزه على تفاصيل العلاقات القائمة في الحياة اليومية، وبما أن موضوع العلاقة بين المسلمين والمسيحيين هو موضوع الساعة، فلديه ما يكفي ليكتب عنه. أما حسام عادل، وهو طالب كَتَب مجموعة قصصية تركز على التفاعلات الدقيقة للحياة اليومية، فيحاول عرض لحظات من النقد

الأخلاقي البنَّاء. ومختار شحاتة نشر رواية واحدة، وله أخرى لم تُنشر بعد، لكن بعد الثورة أجل مشروع الرواية، وبدأ يبحث عن وسيط جديد تمامًا يعبر من خلاله عن وجدانه.

السؤال الأساسي هو مسألة الدوافع والأسس وتجربة الكتابة. ظل هذا السؤال هامشيًا في أثناء النقاش، الذي دار حول تغيير العالم. تبيَّن وجود اتفاق على أن أي كاتب يريد تغيير العالم حتى ولو بدرجة محدودة. لكن الكاتب يغير أولاً نفسه. السؤال إذن هو: كيف؟ المشترك بين الحضور هو النظر إلى العلاقات الاجتماعية اليومية وليس الصورة الأكبر أو الأحداث الدرامية الجليلة، على حد تعبير شمعي: "تغيير الأشياء من القاعدة مش من القمة". أربط هذه الرؤية بكيفية خروج الثورة المصرية: حركة شعبية بدون قائد صاحب كاريزما. كانت ثورة موجهة ضد رأس النظام، لكن حراكها من القاعدة إلى القمة. أربط هذا بكيف أن التغير في التوقعات والأمزجة سابق وليس لاحق للتغير المؤسسي. هؤلاء الكُتَّاب يلمسون من مختلف الزوايا لحظة محورية، لكن في الوقت نفسه فإن انعدام اليقين لديهم حول ما يكتبون الآن يُظهر كم هو سؤال مفتوح. مع تحول الثورة إلى مسار المرحلة الانتقالية، فالسؤال هو: إلى أين؟ تأتي الثورات عادة بتحولات عميقة وقوية في المشهد الأدبي والإنتاج الفني. عندي فضول كبير لأنْ أرى الإجابات التي سيخرج بها الأدباء الشبان على هذا السؤال، على مدار السنوات القادمة.

تذّكر الشهداء

مساء السبت ١٢ مارس جاءتني أخبار جيدة، بأن علي صبحي وثلاثة آخرين معتقلين في السجن الحربي قد أُعلن عن براءتهم وقد أفرِج عنهم. ارتفعت معنوياتي

كثيرًا، رغم عدم معرفة مصير عدد كبير من المحتجزين الآخرين. للمرة الأولى من عدة أيام نمت نومًا عميقًا.

للمرة الأولى منذ يومين سمعت شهادات تفصيلية عن أحداث الإسكندرية يوم جمعة الغضب، ٢٨ يناير، اليوم الذي حاوَلَت فيه الشرطة أن تسحق المظاهرات باستخدام العنف، يوم قُتل المئات في شتى أنحاء مصر. يقول (د) إنه عندما عاد إلى بيته في وسط الإسكندرية، رأى الكورنيش كله مشتعلاً بالحرائق والدخان في مشهد عجيب وكأنه من تغطية للحرب في العراق وليس ما يعرفه عن مصر. أخيرًا أخرج (س) ذكرياته عن جمعة الغضب، في ذلك اليوم قال لزوجته إنه ذاهب إلى العمل، ثم انضم إلى المظاهرات بقيادة نشطاء سكندريين من الإخوان المسلمين، وتحركوا على امتداد الكورنيش وتجمع معهم ناس كثيرون، إلى أن واجهوا الشرطة أخيرًا في سيدي بشر، والتي أجبرتهم على الانتقال إلى الشوارع الجانبية، وفيها وجدوا صفًا آخر من الشرطة، هاجموهم بالغاز المسيل للدموع وضربوهم بالعصي المعدنية وبالحجارة التي أخذوها من موقع بناء قريب. أصيب شاب يُدعى خالد في صدره بعبوة غاز على مسافة أمتار. أبعده (س) مع آخرين عن المكان وأخذوه إلى جامع قريب، كان جامعًا للسلفيين، يديره أشخاص يعرفهم (س) الذي انجذب إلى السلفية قبل أعوام، رفض شيخ الجامع إدخال الرجل المصاب، وأغلق الباب، وقال بوضوح إنه يؤيد مهاجمة الشرطة للمتظاهرين، مات خالد. أصيب (س) في قدمه وكتفه إذ ضُرب بالعصي المعدنية، وأبعده متظاهرون آخرون عن المكان، بعد ساعتين كان قد وصل سيرًا على قدميه المصابتين إلى البيت، ولم يخبر زوجته أو أي أحد بما تعرض له.

كان صديقي (ر) في العجمي يوم ٢٨ يناير، ووصل إلى المظاهرات في العصر، بعد أن قُتل أربعة أشخاص وبعد إحراق قسم الشرطة. ومع عدم وجود تلفزيون في شقته ومع انقطاع الإنترنت والتليفون، لم تكن لديه أي فكرة عن ما يحدث، وعندما اكتشف ما يجري، لم يصدق عينيه. أعداد متزايدة من الناس يواجهون الشرطة في الشوارع، وأحرقوا أربع عربات شرطة. بعد فترة تراجعت الشرطة، وانضم (ر) إلى المتظاهرين الذين وقفوا ينتظرون عودة الشرطة، على استعداد للموت، لكن الشرطة لم تعد. يصف (ر) مشاعره المختلطة: "حسيت إن بعد ما عاملونا زي الفراخ طول الفترة دي، إن مصر بكرة هتبقى جنة. لكن برضه سألت في الوقت نفسه: ليه يتحرق قسم الشرطة؟ هيتبني من جديد بفلوسنا". هو بدوره رأى مشاهد عنف لم يرها من قبل، وما زالت تزعجه. رأى رجلاً مصابًا بكسر صعب للغاية في يده، ويقول إنه أحس وكأنه هو من أصيب.

للمصريين كل الحق في الإحساس بالفخر بثورتهم السلمية، خصوصًا مع مقارنتها بالعنف الدموي الذي تُواجَه به الانتفاضات الشعبية في العالم العربي حاليًا. في أغلب الدول العربية، ها هي اليد الحديدية لما اعتاد الغرب أن يصفه بـ "الدول العربية المعتدلة" تسحق المتظاهرين بلا رحمة (ولا أتحدث عن ليبيا فقط، بل أيضًا اليمن والسعودية وعُمان والعراق والبحرين). لكن تعداد القتلى الرهيب ليوم ٢٨ يناير يذكرني أيضًا بأن الثورة المصرية أصبحت سلمية فقط بعد محاولة الحكومة ارتكاب مذبحة. على امتداد كورنيش الإسكندرية ترى صور شهداء الثورة، هناك ٨٣ شهيدًا في الإسكندرية وحدها. وفي وسط الإسكندرية يوجد نصب تذكاري مؤقت يحرسه متطوعون، وقائمة بأسماء كل من قُتلوا في أثناء الثورة في شتى أنحاء مصر. قرأت ليلة

الأمس على الإنترنت عن شقيق (ل) التي قابلتها وأنا قادم في الطائرة إلى مصر يوم ٣١ يناير. كانت بدورها في طريقها إلى مصر لتبحث عن شقيقها زياد بكير المفقود منذ ٢٨ يناير. بلغني يوم الجمعة أنهم عثروا على جثمانه في ١٠ مارس، في مشرحة ظلت فيها جثته لم يتعرف عليها أحد لأكثر من شهر. أصيب في رأسه برصاصتين ليلة ٢٨ يناير. قلبي يعتصره الألم كلما فكرت في هؤلاء الناس، وأغلبهم في سن الشباب، الذين ماتوا بسبب نظام لديه من الكِبر والتعالي ما يكفي لإطلاق الرصاص على المواطنين لأنهم يطالبون بالمعاملة المحترمة وبالكرامة.

مع تذكر مصر لشهداء الثورة وإحيائها لذكراهم هذه الأيام، فهي تتجاهل أمورًا أخرى. بينما الجزء الأكبر من الشعب يتمتعون بترف الحرية والأمل الجديد، فقد اتخِذَت خطوات جديدة تهدف بوضوح إلى إسكات الأجزاء الأكثر نشاطًا من الحركة الثورية. مع إفراج الحكومة العسكرية عن السجناء السياسيين المعتقلين منذ أعوام، فهي في الوقت نفسه تعتقل نشطاء ثورة مصر السلمية في وسط البلد بالقاهرة. لم يتوقف الأمر عند استمرار المقبوض عليهم سابقًا رهن الاحتجاز حتى الآن، بل قُبِض على أشخاص آخرين يوم الجمعة ١١ مارس في وسط البلد، هذه المرة في تحرك استهدف النشطاء بكل وضوح. تأكد أسماء ١٢ شخصًا رهن الاعتقال، وهناك آخرون محتجزون لم تُعرف أسماؤهم بعد. لا توجد معلومات عن مكانهم أو مصيرهم. وهناك الكثيرون لا يريدون تصديق أن الجيش تورط في احتجاز وتعذيب متظاهرين سلميين. بينما بعض من قابلتهم يرون التحالف بين الثورة والجيش مسألة مؤقتة من واقع الضرورة، فليس عندهم أوهام عن المجلس العسكري، بينما يعتنق آخرون شعار

الجيش والشعب إيد واحدة بحذافيره، ولا يريدون التفكير في أنه ربما كانت الصورة أكبر من هذا.

تحقق الكثير، وتغير الكثير، لكن النجاح حتى الآن جزئي، وكان ثمنه رهيبًا.

ماذا نبني؟

ليست الثورات بالأمر السهل اليسير على الفهم. فهي تحدث في اللحظات التي يصبح التغيير التدريجي فيها مستحيلاً، وعندما يكون السبيل الوحيد إلى الخروج من الأزمة هو قلب النظام من أجل كسر الوضع الراكد. ولهذا السبب فالثورات تهدم أكثر مما تبني، هذه هي فائدتها، أن تكسر "عقدة الخوف" عند المواطن تجاه الحكومة، تكسر سلطة النظام، وتكسر الدائرة الضيقة المغلقة التي تقتصر عليها حركة الناس. مع كسر الدائرة الضيقة، يتمكن القائمون بالثورة من الانفتاح على عالم من الاحتمالات الجديدة، ومع خروجهم وقول "لا" جهارًا، تغرس الثورة في هؤلاء الناس إحساسًا هائلاً بالقدرة ومنظورًا مختلفًا تمامًا لما يمكنهم فعله بأيديهم. لكن ماذا يفعلون تحديدًا؟ كيف ستصبح مصر المستقبل؟ القضايا الأساسية هذه الأيام هي الاقتصاد والدين والدستور، وعلى المدى الأبعد، توقُّع التغيُّر الاجتماعي العميق.

يوم السبت ارتحت فترة الصباح، وبعد الظهر أخذت أنا و(س) الميني باص إلى منطقة وسط البلد في الإسكندرية. في الطريق رحنا ننظر إلى الرسوم والجرافيتي على الجدران على امتداد الكورنيش، بعض الأعمال كتابات عفوية على الحائط، وبعضها رسومات جدارية برعاية مؤسسات، تحتفل بالوطنية والثورة، وبعضها لافتات برعاية أصحاب شركات وتجارة على هيئة أسلوب دعاية عصر مبارك، ترحب بعودة الشرطة إلى الشوارع، وبعضها شعارات سياسية من مختلف ألوان الطيف. يقول (س) لي كيف

كان شكل الشوارع أيام المظاهرات الكبرى، قبل حملة تلوين كل شيء بالأحمر والأبيض والأسود بعد ١١ فبراير. قبل الثورة بأشهر كتب أحدهم بالإسبراي على امتداد الكورنيش جزءًا من قصيدة لأمل دنقل "لا تحلموا بعالم سعيد.. فخلف كل قيصر يموت.. قيصر جديد" في أسلوب قاسٍ للتعبير عن المشاعر السياسية على مدار السنوات الماضية. مع بدء المظاهرات، ظهرت رسوم جرافيتي عفوية تقول "يسقط النظام" و"يسقط الطاغية" و"لا لمبارك" وانتشرت سريعًا في شتى أنحاء المدينة. كتب مؤيدو مبارك فوق بعض الشعارات، وبعضها غطتها رسوم جدارية جديدة انتشرت بعد الثورة، لكن ما زالت رؤيتها ممكنة داخل الشوارع. وفي موقع بناء متهدم في وسط الإسكندرية هناك رسمة جدارية كبيرة تقول: "أمر إزالة للنظام صادر من الشعب المصري، يبدأ نفاذه من ٢٠١١/١/٢٥". وهناك متاجر كثيرة غيَّرت أسماءها بشكل عفوي إلى "سوق الثورة" و"قهوة الشهداء" و"جينز ٢٥ يناير"... إلخ، وعادة تستخدم ألوان العلم، المنتشرة في كل الأماكن هذه الأيام. هناك بوسترات للسلفيين الذين بدؤوا حملة كبيرة للمطالبة بأن تصبح مصر إسلامية. ومع انتقالي إلى خارج وسط المدينة، رأيت هذه البوسترات تزيد.

مضيت من وسط الإسكندرية إلى العجمي، وهناك قابلت صديقيّ (ر) و(ي)، ومثل أغلب مناطق الإسكندرية، فالعجمي منقسمة إلى منطقة غنية على البحر، وأخرى فقيرة في الداخل. الجزء الذي يعيش فيه (ر) و(ي) (وهما شقيقان) ينتمي إلى الجانب الفقير الداخلي، على أطراف منطقة إسكان حكومية من السبعينيات معروفة باسم المساكن الصينية (مشروع إسكان صيني تعاوني) ومنطقة جبلية يملكها البدو، وهم السكان الأصليون للمنطقة. استخدم (ر) و(ي) مدخرات

الأسرة في بناء بيت صغير هناك، وهناك بيوت أخرى تُبنى في الوقت الراهن، فمع توقف الاقتصاد المصري بسبب الثورة، ازدهرت أعمال البناء؛ في غياب الشرطة والمفتشين الحكوميين، يمكن للمرء أن يبني بنصف السعر، إذ لا تُدفع رشاوى. أتساءل ماذا سيحدث عندما يعودون.

في خليط من المزاح والجدية، أوضح لي (ي) أن من أسباب قيام الثورة نقص الحشيش. قبل أشهر وقعت مشكلة بين تاجر المخدرات الذي كان يتعاون مع الشرطة ووزارة الداخلية، بعد أن قتل تجار المخدرات ضابط شرطة. النتيجة أن الشرطة التي كانت تغطيه حتى ذلك الوقت، أوقفت توزيع الحشيش، وعلى مدار أشهر قليلة، أصبح من الصعب شراء الحشيش. يقول (ي): "أنت عارف الناس عايشة إزاي في مصر؟ بيصحوا الصبح ويروحوا الشغل ويشتروا حاجتهم ويروحوا، ياكلوا، وبالليل ينسطلوا. لما انقطع الحشيش مقدروش يستحملوا العيشة". إلا أنه منذ بدء الثورة عاد الحشيش بوفرة من جديد.

(ر) و(ي) مختلفان كثيرًا حول مسألة التفاؤل والتشاؤم هذه الأيام. قال (ر) إنه كان سعيدًا للغاية، حتى الأيام الأخيرة، عندما بدأ يشعر أن الجيش ليس خبيرًا في إدارة شؤون الدولة، وأن هناك أمورًا كثيرة لم تتغير، وأن الرشاوى ما زالت تُدفع ورجال السياسة يحتالون على الناس ويسرقونهم. (ي) على النقيض منه، فهو متفائل؛ كان قد ذهب إلى وسط الإسكندرية لمقابلة فتاة في معهد جامعي كان يدرس فيه من قبل، ورأى الطلبة في مظاهرة تطالب من بين عدة أمور بحل اتحاد الطلبة. في رأي (ي) الأمور تتحرك، حتى وإن كان الوعي السياسي للناس في رأيه متدنيًا للغاية.

إحساس (ر) بخيبة الرجاء متصل بالتحول العام في الموقف، من الحالة الثورية المفعمة بالمشاعر وكثافة المشهد وتتابع الأخبار سريعًا، إلى حالة من تثبيت السلطة لأقدامها والدخول في مرحلة انتقالية فيها تطورات أقل درامية وأكثر تعارضًا وتباينًا فيما بينها. مصر تغيرت، لكن ليس من كل الأوجه؛ الناس قادرة على التظاهر بحرية، لكن المظاهرات تُفض أحيانًا بالقوة واعتقال الناس، آخر واقعة من هذا النوع كانت اليوم، عندما فض الجيش اعتصامًا قائمًا من أسبوع للمسيحيين أمام مبنى التلفزيون. عادت الشرطة إلى شوارع الإسكندرية بمزيج من السيطرة الحذرة والنقاش مع الناس على جانب، وعلى الجانب الآخر لافتات برعاية أصحاب شركات وتجارة ترحب بهم بنفس أسلوب اللافتات التي كانت ترحب بالحكومة في أيام مبارك. هناك سؤال هام وكبير عن مستقبل مصر يهيمن على أغلب المناقشات، هو: ما المسار المنتظر من الآن فصاعدًا؟ إحدى أهم المسائل هي مسألة الحركة السلفية، التي تُروِّج لقراءة متزمتة بشكل متطرف للإسلام، كأسلوب حياة يحل كل المشكلات.

في المساكن الصينية، أقيم اجتماع عام ينظمه السلفيون، وهم أقوياء للغاية في هذه المنطقة. ذهبت أنا و(ي) و(ر) لنحضر لكن وصلنا متأخرين، وجدناهم يفكون الخيمة المعدة للاجتماع، وعنوان الاجتماع كان "القيم والمفاهيم". لكن السلفيين، وأغلبهم من المنطقة، تركوا بوسترات ومنشورات كثيرة تزين نصف دكاكين المنطقة، كلها باللون الأخضر الزاهي، وتقول: "الحياة تهون الكل يهون لكن إسلامنا لا يهون: لا مساس بالمادة الثانية من الدستور"، "الإسلام دين ودولة: لا مساس بالمادة الثانية من الدستور"، "شرع الله لا قانون الطواغيت: لا مساس بالمادة الثانية من الدستور". هناك بوسترات أخرى عليها شعارات مثل "مصر إسلامية" و"فصل الدين عن

السياسة هو أقصر طريق إلى الكفر" في كل أنحاء الإسكندرية، لكنها تهيمن على المشهد في غرب الإسكندرية. وعلى نقيض الحال على الكورنيش، فالخطاب المخالف لما تقوله هذه الملصقات والكتابات على الجدران قليل للغاية، وهناك بعض الشعارات الخاصة بالإخوان المسلمين، الأقل تشددًا، تدعو الناس إلى بناء بلدهم والتغلب على الفساد عن طريق بذل مجهود جماعي.

تعتبر الإسكندرية أهم مركز للحركات الإسلامية في مصر، ويتمتع فيها السلفيون والإخوان المسلمون على حد سواء بدعم أكثر، ولديهم فيها قاعدة اجتماعية أقوى من أي مكان في مصر. وهم في أقوى حالاتهم في الإسكندرية، عند الأطراف الشرقية والغربية للمدينة. الإخوان المسلمون هم مجموعة من رجال السياسة أصحاب الخبرة، الذين يبحثون بمهارة عن طرق للتأثير، تجمع ولا تفرق. أما السلفيون فمسارهم مختلف تمامًا، وهم أكثر تطرفًا بكثير. على النقيض من الإخوان المسلمين الملتزمين بالديمقراطية، يريد السلفيون إنشاء إمارة إسلامية، ويطالبون بمطالب متطرفة وكلية، تقضي بإخضاع مصر لنظام أخلاقي متزمت وتفسير بالغ التطرف للشريعة الإسلامية.

وفي الوقت الحالي يظهر السلفيون بصفتهم الحصان الأسود مع بداية الفترة الانتقالية. قبل الثورة قدموا أنفسهم على أنهم حركة دينية غير سياسية مهتمة حصرًا بكيف يخلص المرء وزوجه وأطفاله وجوههم لله وحده، ويظهر الآن أنهم كانوا يفعلون هذا بالاتفاق مع أمن الدولة التي سمحت لهم بنشر رسالتهم هذه (وبنشرهم لهذه الرسالة فهم يحدون من تأثير الإخوان المسلمين) بشرط أن يبقوا بعيدًا عن السياسة. أوفوا بما عليهم من التزام في هذه الصفقة، وفي أثناء التظاهرات الكبرى كانوا مشغولين

بالنصح بأن التظاهر ضد الحاكم حرام شرعًا. لكن بعد سقوط مبارك وتجميد عمل جهاز أمن الدولة، بدأ السلفيون يتحولون سريعًا من حركة دينية إلى حركة سياسية.

وفي غرب الإسكندرية، لا يسع المرء أن يتفادى مناقشة مسألة السلفيين والدولة الإسلامية. (ر) و(ي) كلاهما ينتقدان السلفيين. (ر) كان سلفيًا لمدة عام، وكان يحترم السلفية كثيرًا، لكنه الآن قلق للغاية؛ يرى أن للسلفيين أجندة بدؤوا مؤخرًا فقط في الكشف عنها علنًا. يرى (ي) و(ر) أن السلفيين لن يتمكنوا من حشد الأغلبية السياسية في الإسكندرية نظرًا إلى تطرفهم، وإلى أنهم غير مرنين على الإطلاق. أغلب المسلمين هنا يحترمونهم بصفتهم متدينين أولي علم في الإسلام (العلم بمعنى المعرفة بالكتب الدينية، وهو مزاج التدين السائد في مصر في العقود الماضية)، لكن لا يتمادون كما يتمادى السلفيون. إلا أنه وبينما تطرف السلفيين لا يجتمع عليه أغلب الناس، فقد نجحوا كثيرًا في الزعم بأنهم لا يتحدثون بلسان أفكارهم، بل بلسان الدين ككل.

هذا يعطيهم ميزة في المناقشات، ظهرت من محاولات (ر) و(ي) القوية لانتقاد الدولة الإسلامية. (ي) رجل صاحب آراء علمانية للغاية بالمعايير المصرية، وهو يحب التساؤل حول أي شيء، ويحب اللعب بالأفكار. يتحدى (ر) أن يقول ما العيب في الدعوة إلى دولة إسلامية؟ قال: "أنا كمسلم لازم أعيش على مبادئ الإسلام، عشان كدة أكيد الدولة المثالية هي الدولة الإسلامية اللي بتطبق شرع الله، وهو سبحانه أنزل لنا الشريعة لمصلحتنا". يحاول (ر) تفادي الرد على السؤال بلا أو بنعم لكن في النهاية يقول: "آه، أنا كمسلم أفضِّل الدولة الإسلامية، لكن ما ينفعش تتطبق علينا كده مرة واحدة. لازم تيجي خطوة خطوة، ولازم تيجي من الناس مش تتفرض

عليهم. وإلا هنمشي بدراعنا مربوط". مع انتقاد (ر) و(ي) للسلفيين والإخوان المسلمين، يصادفون صعوبة في الاختلاف مع فكرة الدولة الإسلامية. إذا كان الإسلام يمثل الخير والعدالة، فكيف ترفض فكرة دولة الخير والعدالة؟ وفي الوقت نفسه، فإن (ي) من المؤيدين المتحمسين للدستور العلماني. يريد إلغاء المادة الثانية من الدستور: "لو أغلبية الشعب عايزاها، مفيش مشكلة، تبقى ديمقراطية، لكن أنا شخصيًا ضدها لأنها بتفرض الدين على الناس".

قابلت يوم الاثنين (د) في مكتبه بالمركز الثقافي اليساري، وأطلعته على مخاوفي حول السلفيين، وكيف أن لا أحد يقدر على التصدي لهم في مناطق الإسكندرية الفقيرة. هو أقل قلقًا، لأنه بينما الإسكندرية قاعدة قوية للسلفيين، فأغلب الناس يختلفون معهم بسبب جمودهم الفكري وبسبب تعاونهم مع أمن الدولة. لكن هناك مشكلة الوعي السياسي، التي يتفق على وجودها، وأن قلة من الناس يفهمون معنى الدستور أو الديمقراطية،و... إلخ. وعلى الجانب الآخر من السلفيين وملصقاتهم، فهناك حركة من المثقفين والفنانين يديرون حملتهم، إذ يذهبون إلى المقاهي في مجموعات من ثلاثة أشخاص، ويفتحون المناقشات ويشركون الناس فيها. لكن في الوقت الراهن، قدرتهم على التحريك والحشد ما زالت محدودة مقارنة بالسلفيين. وعلى كل حال، يقول (د) إن القضية الأساسية الآن هي الاستفتاء على التعديلات الدستورية، التي يدعمها عناصر من النظام القديم والإخوان المسلمين (الواضح أن الطرفين يتعجلان التفاوض على الحكومة الجديدة سريعًا)، ويعارضها أغلب أطراف المعارضة، وبينهم جميع المرشحين الرئاسيين. يقول (د) إن الاستفتاء سيكون مؤشرًا على الرأي العام حول الانتخابات البرلمانية المقرر عقدها في سبتمبر، إذا صوتت

الأغلبية في الاستفتاء بنعم، فلنا أن نتوقع هيمنة عناصر الحزب الوطني والإخوان في الانتخابات، لو جاء التصويت بلا، فلنا أن نتوقع سيطرة الأحزاب الأخرى والحركات الثورية التي لم تنتظم بعد في أحزاب، "لكن عمومًا الموضوع مش موضوع مين هيحكمنا السنين الجاية، أو هل هيكونوا الإخوان ولا لأ. المهم هو إننا نبني نظام ديمقراطي، وبعد فترة برلمانية واحدة نقدر نخرَّج الإخوان من الحكومة".

مع وصولي بالأمس في زيارة قصيرة لقرية في وسط الدلتا، وجدتني قبالة طريقتين للتفكير في الوضع الحالي، أساس الاختلاف بين الطريقتين هو الاختلاف بين الجيل والجيل في الأسرة التي استضافتني. ونحن نشاهد الأخبار عن الخطوات القانونية ضد الرئيس السابق حسني مبارك، بدأت الأم مناقشة عن أين راحت الأموال المسروقة من الشعب، وكيف تعود، وكيف كان الأكل غاليًا، وكيف كانت أموالهم قليلة في عصر مبارك. الآن سعر اللحم انخفض، والسر كما يُقال هو طرح كميات من لحم الغزلان والنعام، من مزرعة كان يملكها جمال مبارك، وكان يأكل منها. هذه طريقة للحديث عن التحول الثوري من منظور يهتم بالأشخاص.. تتلخص في الحديث عن الإمساك باللصوص واستعادة المال المنهوب. ابنتها (ت) تشاركها الاهتمام بضرورة استعادة الأموال، لكن عندها اعتبارات أخرى أيضًا، فهي بدورها مشغولة بالتساؤل عن مصر المستقبل وطبيعتها، وما القوانين التي ستحكمها، وما طبيعة الحرية التي سيكتسبها الناس، وتتحدث عن الاستفتاء على التعديلات مع أخيها، وتسألني عن رأيي. بدلاً من أن أقول رأيي، ذكرت لها ما أفهمه من الجدل حول "لا" و"نعم" وما يعنيه كل اختيار. تقول (ت): "أنا كمان فاهمة الموضوع كدة. هأقول لأ. إحنا قمنا بثورة عشان نغيّر، نغيّر صح بقى". تسألني (ت) إن كانت المادة الثانية من الدستور

ستدخل ضمن الاستفتاء، فقلت لا. تقول: "عموما أنا ضد المادة التانية. المفروض الدستور ميفرضش الدين على الناس. ولازم المسيحيين يحسوا إن مصر بلدهم هم كمان".

لكن ما يهم (ت) أكثر من الدستور، هو مسألة الحرية: "مع الحرية اللي كسبناها من الثورة، هل نقدر نقول اللي جوانا ولا قلوبنا لسه مُقيدة؟ في مجتمعنا الشرقي مش بنعبر عن كل اللي جوانا ومش بنتكلم عنه. قبل الثورة بفترة كنت مع أخويا في القاهرة واتكلمت معاه في الموضوع ده كتير. ليه مسموح له يتصل بصاحبته وأنا أعرف أنه بيكلمها، ولو أنا لي صديق، حتى لو الموضوع عادي مجرد صداقة، اضطر أخبي عليه؟" بالنسبة إليها، الأهم من التغيير في النظام السياسي هو التغيير في طبيعة العلاقة بين الرجل والمرأة، وحرية المرء في التعبير عن ما يفكر فيه، وبناء علاقات اجتماعية دون انتظار التعليقات الحمقاء. وجهة نظرها تعتبر وجهة نظر محافظة، تستند إلى أفكار الدين والزواج والأسرة، وهي لا تشكك في هذه الأمور، وهي كذلك وجهة نظر راديكالية، بما أنها تطرح فكرة أن الحرية ليست مجرد الحرية السياسية، بل حرية القلب أيضًا.

الثورة المصرية ثورة راديكالية سياسيًا، لكنها محافظة اجتماعيًا. هناك مطالب بسيادة القانون والمساءلة والحكم البرلماني وقضايا أخرى. أما قضايا الرجل والمرأة والعلاقات الأسرية، فالمناقشات حولها أقل، والدور البارز للحركات الإسلامية في الدين يعني أيضًا بروز الأفكار المحافظة فيما يخص علاقة المرأة بالرجل. لكن وإن كان من الواضح أن مصر الجديدة ستكون ذات صبغة إسلامية واجتماعية محافظة، وإن كانت ديمقراطية، فقد خرجت الثورة بأسئلة عن العلاقات الحميمية بين الناس؛ سوف

تحدث ثورة اجتماعية بطيئة في مصر، من المرجح أن تستغرق من عشرين إلى ثلاثين عامًا. إلا أنه من غير الوارد أن تؤدي إلى الليبرالية والتحرر على النمط الغربي. مصر والمجتمعات العربية الأخرى التي تمر بمرحلة انتقالية ستخرج بنمط خاص بها، كما أوضحت (ت): "دلوقت نقدر نبني بلدنا من أول وجديد، مش مضطرين نبص على نماذج دول تانية. نقدر نبنيها بالشكل اللي يناسبنا".

وكما قال لي دكتور سعد كامل الأسبوع الماضي إن السلطة الأبوية في أزمة، لكنها تقاوم بضراوة، ولا نعرف ما الذي سيحل محلها. على كل حال، فالتحولات الاجتماعية الخاصة بالعلاقات الحميمة والعلاقات بين الرجل والمرأة ستكون من مواطن الأزمات الاجتماعية العنيفة في مصر على مدار العقود القادمة، لكنها سترتبط ارتباطًا وثيقًا بالتطورات الاقتصادية، لا الثورة ولا ما سيجيء بعدها سهل على الفهم إلا إذا أُخذ في الاعتبار الارتباط بين الاقتصاد والسياسة. الجو الاجتماعي المحافظ الناجم عن الصحوة الإسلامية في مصر منذ السبعينيات ليس مصادفة من مصادفات الحكم الرأسمالي في مصر. هناك صلة بين الأمرين، إذ برز الدين كوتد لليقين الأخلاقي في مجتمع تتحول فيه العلاقات الاجتماعية بشكل متزايد إلى علاقات اقتصادية غير أخلاقية.

مساء الأحد قابلت (ج)، وهي فنانة يسارية مستقلة كانت تتأهب للسفر إلى الأردن لحضور ورشة عمل، وكانت هناك أيضًا أغلب فترات الثورة. وجدتها في حالة من التشاؤم لأنها أحست أنه بينما هناك بعض المكاسب السياسية الحقيقية، إلا أن المشكلة الأساسية في أن التغيير في النظام الرأسمالي الاقتصادي والسياسي أصعب بكثير: "لو حصل تغيير سياسي ومحصلش تغيير اقتصادي هنفضل ندور في دايرة

مغلقة، والمشكلة إن ده هو اللي الغرب عايزه". مع الإحساس بالصدمة من زلزال اليابان والكارثة النووية التي تلته، أبدت أيضًا قلقها إزاء القضايا البيئية التي لا يهتم بها أحد في مصر ولا يتحدث عنها أحد في اللحظة الراهنة. كانت (ج) في الأردن في أثناء الثورة، وكانت وقتها مرتبطة بالأحداث ارتباطًا وثيقًا على المستوى النفسي. لكنها تقول أيضًا إنها لم تكن تحتاج إلى الثورة لنفسها: "أنا حرة فعلاً. حررت نفسي من فترة طويلة جدًا. أنا ثورية من عشرين سنة. الثورة دي مهمة لكل الناس اللي ما كانش عندهم أي إحساس بالأمل، واللي كانوا حاسين إن العالم مديهم ضهره وبيلعنوا اليوم اللي اتولدوا فيه". تقول إن السؤال هو: ما المدة التي ستستغرقها الثورة حتى تتحول إلى تغيير اجتماعي عميق؟

ثورة ٢٥ يناير خرجت من قلب الإحساس بالإحباط واليأس والغضب من علاقة المواطن بالدولة. لم تكن موجهة بشكل مباشر إلى العلاقات الاجتماعية، مثل العلاقات بين الأجيال، أو بين الرجل والمرأة، أو في الأسرة، أو بين الطبقات... إلخ. لكن مع تأثيرها على جيل الشباب الذين شاركوا فيها، على حد قول (ج)، فسوف تجلب تغييرات أكثر عمقًا، لكن سيستغرق هذا زمنًا طويلاً، ربما عشرات السنين.

وأنا أكتب هذه السطور في القطار العائد إلى القاهرة، أدرك كم كانت تشكيلة الأشخاص الذين تحدثت إليهم على مدار الأسبوع ونصف الأسبوع الماضي محدودة. أغلبهم يتوقعون الكثير من الثورة، ويتطلعون إلى تغيير سياسي واجتماعي عميق، بينما تختلف الآراء حول كيفية الوصول إلى هذا التغيير، وكيف يجب أن يكون، فلم أسمع من أشخاص كثيرين يريدون بقاء الحال على ما هي عليه. كل من قابلتهم تقريبًا خلال الأيام الماضية يفضلون الثورة والديمقراطية، منشغلون بتعلم ممارسة هذه

المصطلحات على أرض الواقع، ويطالبون بأن تكون مصر دولة محايدة دينيًا مع عمق قناعات شعبها الدينية. أتساءل إن كان السبب هو أنني قابلت دون علم مني مجموعة من الأشخاص المتحررين من مختلف الأطياف الاجتماعية والدينية، فتوصلت إلى صورة متحيزة لما يحدث؟ أم أنه رغم التنظيم الجيد وحملات البوسترات الكبيرة للإخوان المسلمين والسلفيين، ومحاولات النظام القديم ركوب موجة الثورة كي يحد من آثارها، فهناك بالفعل مصريون كثيرون لم يعودوا يصدقون كل هذا الكلام ويبحثون عن طريق جديد.

الأربعاء ١٦ مارس ٢٠١١

في ضيافة اليسار.. أو: الجانب المظلم من الحكم العسكري

أمضيت اليوم كله تقريبًا مع أشخاص من مثقفي اليسار في وسط البلد في القاهرة، من المشاركين بقوة في الثورة، والقلقين على نجاحها أكثر من أغلب المصريين.

اليوم هو حفل عيد ميلاد علي صبحي، الذي قُبِض عليه في التحرير يوم ٩ مارس ثم أُفرِج عنه بعد أربعة أيام بفضل حملة لصالحه على الإنترنت ومن قِبَل محامين حقوقيين. هذا المساء نظم له أصحابه حفلاً في تراس فندق صغير في وسط البلد، وهو منطقة تجمع مألوفة لنشطاء اليسار. رحَّب به الحضور ترحيب الأبطال، وكانوا سعداء للغاية برؤيته، لكن الحفل كان هادئًا إلى حد ما. ما زال هناك الكثير محتجزين، وقُبِض على المزيد اليوم، ويدور النقاش حول هذا الموضوع، ومشكلة حكم المجلس العسكري. علي نفسه وسَمَتْه التجربة بطابعها، هناك شيء من الحزن لم أره فيه من قبل. قال إنه عندما اعتُقل ضُرب ضربًا مبرحًا شكّل خطرًا على حياته، ليس لدفعه إلى الاعتراف، بل لمجرد ممارسة القسوة. كان الضرب شديدًا لدرجة أنه بدأ في تلاوة الشهادة، وهو يتوقع الموت في أي لحظة، لكنه عاش. يقول إن التجربة لم تكسره أو أيًا من الآخرين الذين كانوا معه: "كل اللي خرج، خرج وقلبه جامد".

بعد الظهر، قبل أن أذهب إلى حفل عيد ميلاد علي، قابلت (أ)، وهي ناشطة بمجال حقوق المرأة وحقوق الإنسان. كانت قلقة ومتشائمة، خصوصًا مع عدد الأشخاص الذين اعتقلوا منذ ٩ مارس، أفرِج عن بعضهم، وما زال هناك آخرون رهن

الاعتقال، وهناك محتجزون جدد. قُبِض على آخر المعتقلين اليوم.. بعد مؤتمر صحافي عن دور الجيش في اعتقال وتعذيب المتظاهرين، ذهب عدد صغير من الأفراد للتظاهر أمام المتحف المصري، الذي لا يستضيف الآثار المصرية فقط، بل أيضًا يوجد في قبوه مركز احتجاز. أغلب الناس الذين اعتقلوا من ميدان التحرير احتجزوا هنا في البداية. وكما كان متوقعًا قُبِض على عدد ممن تظاهروا أمام المتحف. (أ) تشعر بقلق بالغ هذه الأيام بسبب هذه التطورات. بصفتها ناشطة بمجال حقوق المرأة فقد أسهمت في الثورة إسهامًا كبيرًا. بعد خلع مبارك، راحت تجمع أسماء شهيدات الثورة. لكنها تقول إن الموضوع مختلف هذه المرة، إذ لا يجب أن تهتم فقط بالنساء، بل بكل من قُتلوا، رجالاً ونساءً. على مدار أسابيع بعد ١١ فبراير أدارت ومعها مجموعة مركزَ اتصال لتلقي مكالمات مصابي الثورة. في أثناء هذا تلقوا معلومات عن أشخاص قُتلوا، وتقول إن العدد الحقيقي للقتلى أعلى بكثير من العدد الرسمي، وهو ٣٦٥ شخصًا. في القاهرة وحدها (حيث ينشطون) أعدوا قائمة بأكثر من ٦٠٠ اسم. وقبل أسبوعين سُرقت قاعدة البيانات منهم. لم تتمكن من استعادة القائمة، وتقول إنها أحست ببعض الخوف من أشخاص يعملون معها.

مع عصر الحرية الجديد، هناك أشخاص كثيرون يخافون، والسبب وراء الخوف ليس بما يستهان به، كما يظهر من موجة الاعتقالات الجديدة. في الوقت الراهن (أ) مشغولة بأمرين: إدارة حملة في الإسماعيلية التي تقوم بالتدريس فيها، للتصويت بـ "لا" في الاستفتاء، وجمع المعلومات عن المحتجزين ومحاولة الوصول إلى قيادات في الجيش. مشكلة الجيش، على حد تعبيرها، أنه منقسم من الداخل. هناك أشخاص محترمون للغاية في الجيش، يساندونها فيما تعمل، وهناك آخرون يودون استمرار عصر مبارك،

دون وجود مبارك. تقول إن في هذا تناقضًا غريبًا ومروعًا. على جانب، الشرطة العسكرية تعتقل وتعذب المتظاهرين بشكل يبدو عشوائيًا تمامًا. وعلى الجانب الآخر قابلت لواءات يساندون قضيتها، ويريدون منها أن تسلمهم قوائم بالمعتقلين.

في وسط نشطاء حقوق الإنسان واليسار، تبدو مصر الجديدة مكانًا صعبًا في هذه اللحظة، وانتهاكات حقوق الإنسان الجسيمة التي تشمل الاعتقالات الجماعية والمحاكمات العسكرية من الأمثلة الصارخة على هذا. عُقِدَ اليوم مؤتمر صحافي في نقابة الصحافيين في القاهرة لمناقشة انتهاكات حقوق الإنسان التي يرتكبها الجيش. أغلب الحضور من الصحافة الأجنبية والنشطاء الحقوقيين، والتزمت الصحافة الناطقة بالعربية الصمت إزاء الموضوع لأسباب متناقضة. (هناك إحساس قوي لدى الكثيرين بأن التحالف بين الثورة والمؤسسة العسكرية تحالف تكتيكي ضروري، وأن الجانب المظلم من الحكم العسكري لا بد أن يبقى مسكوتًا عنه لفترة، لأن كشفه سيؤدي إلى الخوف وانعدام الثقة في الجيش، وهو ما ستكون نتائجه عكسية ومدمرة). كان طلب النشطاء في المؤتمر الصحافي ليس فقط الإفراج عن المتظاهرين الذين اعتقلهم الجيش، بل أن تتوقف المحاكمات العسكرية للمدنيين تمامًا. حتى البلطجية يستحقون محاكمة عادلة في محكمة مدنية.

بدأت صديقتي (ك) حملة لصالح محمد عزت عبد الله خليفة، وهو من أطفال الشوارع، في سن المراهقة، وقُبِض عليه وقت القبض على عليّ، وقابله عليّ في السجن. كان يشارك في أنشطة فنية من تنظيم عليّ و(ك)، ويعتبره الجميع شخصًا موهوبًا للغاية، لكن مع خلفيته كطفل شوارع، فموقفه صعب، فهو غير معروف كفنان أو ناشط يسهل تنظيم حملة لصالحه، وليس من أسرة قادرة على مساعدته.

الفقراء موقفهم أصعب من الجميع في المحاكم العسكرية، ويحتاجون إلى أكبر قدر ممكن من المساعدة. تحاول (ك) حاليًا الوصول إلى شهادة ميلاد محمد، لأنه لو كان أصغر من ١٨ عامًا ففرصته في الخروج بحكم بالسجن مع وقف التنفيذ كبيرة.

هناك كلام كثير في وسط البلد حاليًا عن الإخوان المسلمين، الذين يشعر اليسار أنهم خانوا الثورة بحملتهم من أجل التصويت بـ "نعم". الخوف القديم من الإسلاميين عند الطرف العلماني من الطيف السياسي يبرز من جديد، والسبب مقنع. بعض الناس مثل (أ) قلقون من الموضوع كثيرًا، أكثر من (ش) مثلاً، وهو مدرس وممثل هاوي من خلفية فقيرة. (ش) يقول إن المصريين لا يثقون في الإخوان المسلمين، مهما كانوا منظمين. رهاني أنه خلال الانتخابات القادمة سوف تسيطر الأحزاب الإسلامية والمرشحون الإسلاميون، ليس لأن المصريين يتعاطفون كثيرًا مع الإسلاميين، بل لأنهم يريدون حكومة صادقة تخشى الله، ولأن الإخوان المسلمين أقدر من غيرهم على توفير وعود لقطاع كبير من الجماهير حاليًا، إلا إذا تمكنت الحركات القومية واليسارية من حشد ما يكفي للتصويت لحكومة تخشى الله لكن تركز على القضايا الاقتصادية والعدالة الاجتماعية وتركيزها أقل على الأجندة الدينية. البرنامج الذي يركز على المساواة الاقتصادية والعدالة الاجتماعية له فرصة كسب تأييد واسع في مصر، لكنه يحتاج إلى حملة حشد واسعة. سوف نرى. لكن أيًا كانت النتيجة، فإنني أفكر في مطلب المتظاهرين الأساسي قبل ١١ فبراير: لا يهمنا من يحكمنا، يهمنا كيف سيحكمنا.

قلقي من الإخوان المسلمين ليس لأنهم أصوليون أو محافظون. إذا كان الشعب المصري يريد حكومة أصولية محافظة فمن حقه هذه الحكومة بموجب النظام

الديمقراطي. قلقي هو أن الإخوان المسلمين أصبحوا جزءًا من النظام خلال السنوات الماضية، ولن يحلوا مشكلة الفساد والاستغلال الاقتصادي، وهي أسباب خروج الناس إلى الشوارع في الثورة أساسًا. ثم أن المهم أن مصر ستحظى بنظام ديمقراطي يسمح بانتخاب حكومات مختلفة كل أربع سنوات. هذا هو جوهر الديمقراطية: تداول السلطة.

(أ) ومثلها الكثيرون من المشهد الثقافي اليساري الذين يرتادون وسط البلد، قلقون للغاية من القوة الحالية للإخوان المسلمين وعناصر الحزب الوطني، واطلاعهم على جمهور أوسع، وهو الأمر غير المتاح لمثقفي وسط البلد الذين لعبوا دورًا هامًا في المراحل الأولى من الثورة. تقول: "لما كنا في التحرير وهاجمنا البلطجية، كان الناس اللي بيدافعوا عنا في الخطوط الأولى من الإخوان. كانوا منظمين نفسهم ورديات وكانوا منظمين جدًا وعندهم خبرة مش عندنا". نادرًا ما ترتاد وسط البلد هذه الأيام، لأنها ترى أن هناك أمورًا كثيرة يجب عملها في الإسماعيلية. لكنها مدركة لاختلال قوة مختلف الحركات السياسية فيما يتعلق تحديدًا بالوصول إلى قطاع أكبر من الجماهير. يظهر هذا بوضوح الآن مع إعلان الإخوان المسلمين دعمهم للتصويت بـ "نعم" في الاستفتاء. لدى الإخوان نشطاء، ومال، وخبرة لإدارة حملة كبيرة في شتى أنحاء مصر، وفي هذه اللحظة فهم في حملة "نعم" كبيرة، في تحالف مريب مع الحزب الوطني الذي يطالب رجاله بـ "نعم"، وإن كانت حملة هؤلاء تتم من خلال منشورات لا تعلن من وراءها، فسمعة الحزب الوطني ليست جيدة إطلاقًا هذه الأيام. هذا تحرك من الإخوان المسلمين يهدف بوضوح إلى إثبات أنهم الحليف الذي يمكن الثقة به، تحرك في إطار أسلوب الإخوان المعروف منذ عشرات السنين، ويتلخص في محاولة الوصول إلى

السلطة بشكل غير مباشر، وليس بالشكل المباشر الصريح. في أوساط اليسار والثوار الآخرين، هذا أمر مقلق، إذ ربما بعد الانتخابات قد يظهر تحالف بين عناصر الحزب الوطني والإخوان يحكمون البلاد، وهو سيناريو صعب وغير مقبول. لكن يبدو أن مبعث القلق أيضًا هو أن الإخوان مستفيدون من انتخابات مبكرة، لأن منافسيهم في مختلف أنحاء مصر ليس لديهم نفس القدرة والخبرة بعد.

وهذه طبعًا مشكلة تتوقف (أ) أمامها كثيرًا، وكذلك غيرها من اليساريين الذين قابلتهم اليوم. رغم تأثير اليسار الواسع في مراحل الثورة الأولى، ورغم تأثيره الباقي في الإعلام، فإن قدرته على الوصول إلى المناطق الشعبية والريف محدودة، ونقوده أقل. وهناك أيضًا مشكلة أن الكثير من مؤيدي الثورة ينشرون آراءهم على الفيسبوك، وهو غير متاح إلا لقلة من المصريين. هناك منشورات بـ "نعم" أكثر بكثير من منشورات "لا" توزع في الشوارع هذه الأيام، والمنشورات تصل إلى عدد أكبر ممن يستخدمون الإنترنت. إحساسي الداخلي هو أن هذه الحملة الدعائية الموسعة بـ "نعم" هذه الأيام، من مختلف القوى السياسية، يُرجح أن تؤدي إلى انتهاء عملية التصويت على الاستفتاء بنسبة كبيرة لـ "نعم". لكن النتيجة ما زالت مفتوحة وقد يخطئ إحساسي. بغض النظر عن نتيجة الاستفتاء، فقد أصبح درسًا لنشطاء الثورة على الفيسبوك. الثورات قد تتحرك ويُحشد لها بقوة على وسائط التواصل الاجتماعي، لكن الاستفتاء والانتخابات تُربح وتُخسر في المناطق الشعبية والقرى والأقاليم. إذا صوَّت المصريون بـ "لا" فلن يكون تصويتهم هذا نتيجة للفيسبوك، بل لأنهم يرون ببساطة أن مصر تحتاج الآن إلى دستور جديد.

تستمر (أ) في العمل بجدية من أجل الحشد السياسي ومن أجل المعتقلين. قررَت أن تؤخر رحلتها إلى الخارج في الربيع لأنها ترى أن مكانها هنا. إلا أن التوتر والقلق هما أقوى إحساسين لديها هذه الأيام. هذه هي الأجواء التي يعيش فيها الكثير من نشطاء اليسار (أغلبهم لم يكونوا نشطاء قبل الثورة، لكن أصبحوا كذلك في أثنائها)، وهم أكثر من أغلب المصريين تشاؤمًا من الوضع الحالي. وعلى النقيض من أغلب السكان، فهم يواجهون ويعرفون الجانب المظلم للحكومة العسكرية. وبعد أن انتهى التحالف الثوري من أجل إسقاط مبارك وراحت مختلف القوى السياسية تهتم ببرامجها الخاصة، تبيَّن ضعفهم بالمقارنة بالأطراف الأخرى. بعضهم فَهِم التداعيات وبدأ في العمل على نشر الوعي السياسي اليساري في شتى أنحاء البلاد. وهي مهمة صعبة، لكن الجادين فيها هم بالنسبة إليَّ الأكثر تفاؤلاً. وكان الأكثر تفاؤلاً بينهم هو (ش)، وهو أقل قلقًا، لما يرى من طاقة إيجابية هائلة في أوساط المواطنين المصريين العاديين. في المدرسة حيث يعمل، هناك منشورات توزع للتصويت بـ "نعم"، وفي البداية اتفق الناس على هذه المنشورات، ثم بدأت إحدى المدرِّسات في الكلام ضدها، وفي النهاية أقنعت المدرسين بالتصويت بـ "لا". يقول (ش) إن الناس يغيرون آراءهم بسهولة، لكن المهم أنهم يتحدثون في السياسة، وهذا في حد ذاته يهيئ لقدر كبير من الوعي السياسي.

كما حدث معي كثيرًا، ينتهي يومي بنتائج متناقضة. على جانب، هناك حملة قوية وجادة ضد جزء من الحركة الثورية من الحكومة العسكرية، أو أطراف داخل الحكومة العسكرية، تؤدي في أوساط هذا الطرف من الثورة إلى إحساس جسيم بالأزمة والخوف. وعلى الجانب الآخر، هناك قدر كبير من الوعي والنقاش

السياسيين. في محل لجأت إليه لشراء الأكل، شهدت على نقاش بين الزبون والبائع. الزبون قلق بسبب شائعة تقول إن عضوًا معروفًا في الحزب الوطني سيترشح للرئاسة. قال البائع: "وليه لأ؟ لو هي انتخابات شريفة ونضيفة، مش مهم مين يترشح. خلاص موضوع تصويت الميتين ف الانتخابات بتاع مبارك انتهى. لو فعلاً تمت انتخابات نضيفة، إن شاء الله حتى تيجي رقاصة ترشح نفسها للرئاسة، المهم إننا قادرين ننتخب اللي عايزينه، وده الأساس. ولما يبقى عندنا ريس محترم، وقتها نقدر بقى نشوف الجيش ويتظبط حاله، عشان محدش بيتكلم خالص عن الملايين اللي بتدخل له وكانوا بيعملوا إيه في عهد مبارك. لكن هيجي وقتهم".

الخميس ١٧ مارس ٢٠١١

نعم أم لا؟

اليوم هناك قضية واحدة تناقشها القاهرة، هي التصويت بنعم ولا في الاستفتاء على التعديلات الدستورية في ١٩ مارس. التعديلات الدستورية التي اقترحتها لجنة من الخبراء الدستوريين مكلفة بالمهمة من المجلس العسكري في نهاية فبراير، يفترض أن تعرض حلاً مؤقتًا بعقد انتخابات رئاسية وبرلمانية قريبًا، وإصدار دستور جديد بعد ذلك. التعديلات لا تمس سلطات الرئيس بأي شكل من الأشكال، وتترك لخليفة مبارك نفس السلطات الرهيبة التي أتيحت لمبارك. قوبل هذا الحل في البداية بتفاؤل محدود من المعارضة، لكن بعد مؤتمر لخبراء دستوريين وقانونيين في مطلع مارس، سرعان ما تحولت نغمة أغلب المعارضة إلى رفض موحد للتعديلات، والمطالبة بدستور جديد الآن، قبل الانتخابات الرئاسية والبرلمانية. إلا أن هناك ثلاثة أطراف هامة دعمت التعديلات، ولها قدر كبير من التأثير، هم الحزب الوطني الحاكم قبل الثورة، والإخوان المسلمون، والسلفيون. لكل منهم أسباب مختلفة لهذا. عناصر الحزب الوطني وكل أتباع النظام القديم يأملون في محدودية أي تغييرات تحدث. الإخوان يبدو أنهم يحاولون إثبات أنفسهم كطرف موثوق كشريك، ويحاولون أيضًا عقد الانتخابات في أسرع وقت ممكن نظرًا إلى تميزهم من حيث التنظيم والقدرة على الوصول إلى الناس، مقارنة بالحركات السياسية الأخرى.

هذه هي الخيارات المطروحة: "نعم" تعني انتخابات رئاسية في الصيف، مع مجيئ رئيس جديد له نفس سلطات مبارك، وبعد ذلك انتخابات برلمانية في سبتمبر ودستور جديد يضعه البرلمان. "لا" تعني أن المجلس العسكري سيصدر إعلانًا دستوريًا مؤقتًا يَرِد فيه نقاط أساسية عن كيفية إدارة البلاد في المرحلة الانتقالية، وتكوَّن لجنة دستورية لصياغة دستور جديد، يُعرض على استفتاء قبل الانتخابات. بالنسبة إلى أغلب المصريين، الوضع محير ومربك، لأن كل النقاش الدائر حول "نعم" أو "لا" يحاول صاحبه في النهاية الوصول إلى نتيجة أن التصويت بهذا الصوت أو ذاك سيؤدي إلى دستور ديمقراطي واستقرار سياسي واجتماعي، مع التلويح بالخوف من نظام ديكتاتوري جديد.

الجدول الزمني للاستفتاء متسرع في أفضل تقدير، ومن الواضح أنه غير مخطط له بعناية، يبدو لي أن الجيش لم ينظر بجدية حتى في احتمال ظهور حملة كبيرة للتصويت بـ "لا" في المقام الأول. الإعلام الحكومي محايد رسميًا، وهناك جهد كبير مبذول لجعل الاستفتاء شفافًا (مسموح فيه بالمراقبين الدوليين للمرة الأولى في مصر). لكن هناك الكثير من العمل الدعائي غير الصريح من الإعلام الحكومي، فيه دعوة وإشارة إلى حاجة المواطن إلى اتخاذ قراره بتمهل وبحرص وبلا تسرع. وهناك حملة تلفزيونية بعنوان "نعم للمشاركة في الاستفتاء"، ودون أن تطرح بشكل مباشر التصويت بـ "نعم" فهي تطرح كلمة "نعم" بشكل مُوحٍ للغاية.

على مدار الأسبوع الماضي، كان هناك قدر كبير من النقاش ضد التعديلات في الصحافة وعلى الإنترنت. لكن في الشارع تظهر حملة "لا" ببطء، والإخوان المسلمون وغيرهم استثمروا الكثير من الوقت في تغطية أغلب مناطق مصر ببوسترات

"نعم"، وعقد الاجتماعات والندوات للتصويت بنعم. اليوم فقط تغيَّر الموقف، وأصبحت القاهرة مغمورة بالكثير من دعوات "لا" و"نعم" على حد سواء. في الإسكندرية راح أصدقاء لي ينظمون حملة للتصويت بـ "لا" ببوسترات كبيرة. وفي القرية، عقد أصدقائي اجتماعًا عامًا يوم الأربعاء، ويتحدثون للناس اليوم وغدًا. المشكلة في حملة "لا"، في القاهرة على الأخص، أن نطاق الحملة محدود جغرافيًا. هناك عمى جغرافي نظرًا إلى الطبقات التي يركز النشطاء حملتهم عليها، إذ ينظرون إلى أجزاء محدودة من المدينة ويتجاهلون الكثير من المناطق الأكثر ازدحامًا بالسكان، والمناطق الأهم على أطراف المدينة.

ظُهر اليوم قابلت (م) الذي لم أقابله بعد أن ذهبت إلى الريف الأسبوع الماضي. كان في حالة من الاكتئاب بسبب انتشار الحركات الإسلامية والنظام القديم في المناطق كثيفة السكان (مثل المنطقة التي يعيش فيها) وبسبب عزلة المثقفين اجتماعيًا واغترابهم، وهو ينتمي إليهم. يقول: "تصدق إني تعبت من الثورة؟ زمان كنا عايشين وخلاص، ومش هاممنا حاجة لأنها ما كانتش بلدنا. دلوقتي دي بلدنا، وأنا قلقان عليها طول الوقت".

(ي) الذي قابلته بدوره في الظهر قلق على اقتصار حملة "لا" على دوائر محدودة. هو مختلف مع خطيبته، التي ترى أنه يجب التصويت بـ "نعم". رأيها أننا أنجزنا ما أردناه بالفعل، وأنه يجب أن نهدأ ولا نغير كل شيء مرة واحدة، ولا يمكننا العمل مع استمرار كل هذه المظاهرات ونحتاج إلى أن نعود إلى الوضع العادي. خطيبة (ي) ذهبت إلى التحرير في أثناء المظاهرات، لكن آراءها مماثلة لآراء من لم يشاركوا في الثورة. (ي) يقول: "زمايلي اللي كانوا ضد الثورة في البداية وكانوا عايزين مبارك

يفضل، دلوقتي بيقولوا إن الثورة ثورتهم، وعايزين يصوتوا بنعم باسم الثورة اللي كانوا أصلاً معارضينها". هذا بالطبع تحليل للوضع يصطبغ بالتزام (ي) القوي بالتصويت بـ "لا"، لكن وجهة نظره وجيهة؛ جميع الآراء الآن تُطلق باسم الثورة، بينما هناك الكثير من المصريين يشككون في الثورة، وأهم فصيل للثورة المضادة عناصر الحزب الوطني، يديرون حملة التصويت بـ "نعم".

لكن هذا لا يعني أن من يريدون التصويت بـ "نعم" يدعمون تلقائيًا النظام القديم؛ خطيبة (ي) ليست كذلك، هي فقط مترددة وخائفة من التغيير السريع. قال سائق تاكسي قابلته في السيدة زينب إن التصويت بنعم ضروري من أجل الوصول إلى الديمقراطية. رأيه (وهو رأي يتبع رؤية الإخوان المسلمين) إن الحكومة العسكرية لا بد أن تتحول إلى حكومة مدنية في أسرع وقت ممكن حتى يستقر الوضع ويعود الجيش إلى ثكناته، ويصبح لمصر حكومة منتخبة ورئيس منتخب، ثم يُعدُّ دستور جديد. هو مثل الكثيرين، يميل إلى التصويت بنعم طمعًا في العودة سريعًا إلى الوضع العادي والدستور الديمقراطي الجديد، مع الخوف من الديكتاتورية العسكرية.

إلا أن الشيخ (ن) الذي قابلته في السيدة زينب يرى التصويت بلا: "النظام سقط وكذلك الدستور". رأيه، الممثل بقوة لمنطق التصويت بلا، هو أن الدستور القديم أصبح ساقطًا، وأنه دعامة وركن أساسي في دكتاتورية تمنح الرئيس سلطات مطلقة. أصبح الدستور جثة هامدة لا يمكن علاجها. الرأي القائل بلا، يرى أنه لكي تصبح مصر دولة ديمقراطية، وإذا كانت تريد فترة انتقالية سريعة للعودة إلى الحال الطبيعية، فلا بد من دستور ديمقراطي كخطوة أولى، وتعديل الدستور القديم يفتح الباب أمام نظام دكتاتوري جديد.

(ث) سمسار العقارات من السيدة زينب، له رأي ثالث. لن يذهب للاستفتاء من الأساس، ويقول لعائلته بألا يذهبوا بدورهم. يعتقد أن الثورة لم تجلب لمصر إلا المزيد من الجرائم والفوضى، وأن المصريين أنانيون وفاسدون: "مفيش حاجة هتتغير في البلد دي. أهُم غيروا الريس، ومين بيحكم البلد دلوقت؟ الحزب الوطني والجيش. النظام القديم هو هو. الحال هيفضل كدة مش هيتغير، وهيفضل الحرامية يحكمونا، وف الانتخابات يدوك ٢٠٠ جنيه وتصوت لهم. أنا عارف، أصلي شفت تزوير الانتخابات اللي فاتت بعيني. أنا سافرت برة وشفت الدنيا ماشية إزاي. في إيطاليا عندهم تأمين صحي محترم. وفي لبنان بتشتري العيش بالكيلو مش بتقف ف طابور طويل عشان رغيف معفن زي هنا. البلاد دي فيها ناس متحضرين وحكومات محترمة، لكن ده عمره ما هيحصل في مصر".

كنت أرى قبل شهور أن تشكُّك (ث) البالغ أمر طبيعي، إنه تقدير واقعي للأوضاع القائمة. لكن اليوم، أراه يتناقض بقوة مع التفاؤل في أوساط قطاعات واسعة من الشعب، وكذلك مع قلق نشطاء الثورة البالغ. الشيخ (ن) الذي أمضى الفترة من ٢٥ يناير حتى ١١ فبراير في ميدان التحرير قال لـ (ث) إن الأمور تحسنت قليلاً بالفعل، وسوف تتحسن كثيرًا، لكن ستستغرق فترة طويلة. (ث) لا يصدق؛ يعرف كيف تسير الأمور، وله دور فيها، وللأسف هو غير مخطئ على طول الخط. الفساد والسمسرة وتزوير الانتخابات وأعمال قسوة الشرطة لن تختفي ببساطة بين ليلة وضحاها، سوف تستمر جزءًا من مصر في ظل حكومة ديمقراطية، وعلى أفضل تقدير قد تقل، وسوف يكون هذا سببًا هامًا للإحساس بالإحباط على مدار الشهور والسنوات القادمة.

ومن السيدة زينب ركبت المترو إلى دار الأوبرا، حيث يُعقَد اجتماع عام عن التعديلات الدستورية، يرأسه الروائي علاء الأسواني، وهو قائم منذ ثلاث ساعات. في المترو رأيت منشورات كثيرة، وأغلبها تدعو إلى "نعم" والكثير منها إلى "لا". كل من كان في يده منشور رأيته يقرؤه باهتمام. أغلب الناس ما زالت لا تعرف معنى "نعم" أو "لا"، وما أهمية الاستفتاء أو التعديلات، وما تبعات التصويت بنعم أو لا. هناك ظمأ رهيب للمعلومات.

في الاجتماع كان كل الحضور تقريبًا يفضلون التصويت بـ "لا"، والجدل أقل حول نعم أو لا، وينصب أغلب النقاش على الخروج بحجج للتصويت بلا. كان (ي) الذي يغطي الفاعلية مستاءً، إذ يفضل أن يرى الناس توزع المنشورات في كل أنحاء المدينة بدلاً من الجلوس هنا في الأوبرا. لكن في أثناء الاجتماع وزِّعَت منشورات من أجل تصويرها وتوزيعها على الناس. حصل (ي) على نسختين من المنشور، واحدة وجدها غير جيدة، ولا تقنع إلا من يريدون التصويت بلا، والأخرى تعرض تفصيلاً مشكلات التعديلات وتقترح حلولاً. أخذ ذلك المنشور معه وهو عائد إلى بيته، وفيما بعد اتصلتُ به وقال لي إنه انضم إلى رجل آخر يدعو إلى التصويت بلا وأشركوا مجموعة من الناس في النقاش. من شاركوا في النقاش كانوا يفضلون التصويت بنعم في البداية، عرض عليهم (ي) تحليله للموضوع، كان رد فعلهم الأول هو الارتباك لأنهم حسبوا أنهم يعرفون علامَ يصوتون، وأخيرًا اقتنعوا وقالوا إنهم سيصوتون بلا.

هذه تجربة جديدة تمامًا على دولة كانت الانتخابات والاستفتاءات فيها لا تزيد عن كونها مسرحية هزلية على مدار العقود الماضية. للمرة الأولى يُنتظر من الناس الخروج بقرارات مستنيرة. يبدو الآن أن الأكثر معرفة هم من سيقولون "لا" (مع عدم

إنكار أن الكثير ممن سيصوتون بنعم يعرفون الكثير، وإن كان عدد هؤلاء قليلاً بالمقارنة). الاستفتاء يوم السبت، وهو سباق مع الزمن.

السبت ١٩ مارس ٢٠١١

بعد الثورة

وأنا أكتب هذه السطور الأخيرة من الثورة المصرية في طريقي إلى ألمانيا، ألعن مرة أخرى توقيتي السيئ في حضور أحداث الثورة المهمة. وصلت إلى مصر في زيارتي الأولى بعد ثلاثة أيام من جمعة الغضب، وكانت لحظة هامة للغاية؛ فَقَد فيها النظام القديم توازنه. غادرت قبل خمسة أيام من تنحي مبارك، ووصلت في بداية زيارتي الثانية بعد يوم من تولي عصام شرف مسؤولية الحكومة، وها أنا أغادر مرة أخرى في ساعات الصباح الأولى ليوم الاستفتاء الذي سيحدد أي مسار ستسلكه مصر خلال الأشهر القادمة.

هذه اللحظة تعد واحدة من اللحظات الهامة شهدتها مصر وسوف تشهدها على مدار العام القادم. لكن في لحظة خروجي من مصر، أنتهز الفرصة لعرض بعض النتائج المبدئية حول الثورة المصرية والتفاعلات الاجتماعية والنفسية التي أطلقتها. أنا لا أدَّعِي الحياد؛ روايتي للثورة المصرية متحيزة تمامًا، وكنت سأعتبر نفسي فشلت في عملي إن كانت رؤية محايدة؛ هناك لحظات مناسبة للنظر إلى الأمور بعين محايدة، وهناك لحظات لا بد فيها من أخذ موقف. لكن في أثناء أخذ الموقف، حاولت أن أكون عادلاً إزاء الآراء والتحركات التي لا أتفق معها، وكان هذا شاقًا.

تحدثت في نوفمبر ٢٠١٠ مع الصحافي المصري عبد الله حسن، وقال لي إن مصر ستشهد ثورة قريبًا. كان ردي عليه إنه لا يمكن أن تحدث ثورة في مصر، وإنني

أرى الثورة على أي حال فكرة سيئة لأن في الثورات تُحطم الأشياء، ويُقتل الناس، وفي النهاية يستولى على الحكم الطرف الخطأ. كنت مخطئًا في تقديري لعدم قيام ثورة في مصر، لكن في الوقت الراهن يبدو أن أسبابي الثلاثة لمعارضة الثورة هي أسباب وجيهة. لكنني مستمر في رؤية الثورة أمرًا جيدًا، بل أحد أفضل الأشياء التي حدثت في مصر منذ زمن طويل للغاية.

بداية، يبدو بصراحة أن الأمور لا تسير نحو الأفضل. هناك حشد قوي من أجل التصويت بلا من أجل دستور ديمقراطي جديد لإتمام الثورة. النشطاء الداعون إلى التصويت بلا الذين ركزوا طويلاً على التظاهر والصحافة والإنترنت، بدؤوا أخيرًا يتكلمون في الشارع ويوزعون المنشورات، لكنهم بصدد حشد أقوى من تحالف مريب بين الحزب الوطني والإخوان والسلفيين على التصويت بنعم، بتأييد غير مباشر من الجيش. التصويت بنعم يعني تثبيت أركان ما تبقى من النظام القديم، ويعني انتخابات مبكرة يُرجح أن يهيمن عليها تحالف النظام القديم والإسلاميون. في القاهرة يبدو أن حملتَي لا ونعم متساويتان في القوة، لكن في الإسكندرية، حيث قوة السلفيين أكبر، لم يكتفوا بعرض وجهة نظرهم علنًا، بل أيضًا يعلنون الرفض لوجود أي وجهة نظر مغايرة. وبحسب تقارير صحافية، فقد حاولوا باستخدام العنف منع حملة "لا" من نشر رسالتها في أنحاء الإسكندرية، ورغم الإجراءات المعلن عنها جيدًا لضمان استفتاء نزيه، فهناك تقارير عن تزوير الأصوات في الريف والصعيد. يبدو من المؤشرات أن التصويت بنعم سيسود بسبب مزيج من الرغبة في العودة إلى الحال الطبيعية من قِبَل قطاع كبير من المصريين، وحسن تنظيم الحركات الإسلامية، وحملة

"نعم" غير المباشرة في الإعلام الحكومي.. وبعض التزوير. لكن النتيجة غير أكيدة، وهذا في حد ذاته تقدم كبير تشهده مصر.

سيناريوهات المستقبل

أمضيت الأمس آخر أيامي في مصر من الصباح إلى المساء في مقابلة الأصدقاء في القاهرة. يمثلون قطاعًا محددًا للغاية من المصريين. سيصوتون جميعًا بـ "لا" ويرون جميعًا أن مصر تحتاج إلى المزيد من المساواة الاجتماعية والمساواة بين الرجل والمرأة، والمزيد من الحرية، وأن تنهض دولة مدنية تحكمها حكومة ديمقراطية، دون الإخوان لو أمكن. لكن تقديراتهم للوضع متباينة، وكل منهم لديه سيناريو مختلف لمستقبل مصر.

صديقتي من جنوب القاهرة هي الأشد تشاؤمًا؛ ترى أن الإخوان والسلفيين يمكنهم السيطرة على الأمور أكثر من غيرهم، سواء بشكل مباشر أو غير مباشر، وهذا خطر جسيم نظرًا إلى أن في حال سيطرتهم ستتعرض وعود الديمقراطية والحرية للخيانة، على يد تحول ديني محافظ، سينهي الحرية القليلة التي كانت متاحة حتى في زمن مبارك. في رأيها إن القوميين واليساريين كانوا ساذجين للغاية، إذ انضموا إلى الإخوان في تحالف مؤقت من أجل خلع مبارك، لأن الإخوان هم من سيستفيدون الآن، نظرًا إلى تنظيمهم الجيد. ترى أنه بما أن النظام كان ضعيفًا لدرجة سقوطه بعد أقل من ثلاثة أسابيع من المظاهرات، فقد كان من الممكن جدًا إصلاحه تدريجيًا. الإصلاح التدريجي للنظام القديم- على حد قولها- يعتبر أفضل، لأنه لن يمنح الإسلاميين فرصة للهيمنة، وهي الفرصة المتاحة لهم حاليًا. إذن ما العمل؟ تقول إن ليس لديها خطة واضحة، لكنها تشير إلى أنه بغض النظر عن التبعات السياسية،

فقد أطلقت الثورة الاشتياق إلى الحرية وهزت أركان المنطق الحاكم لعلاقة الرجل بالمرأة. هذا التحول سيُغير كثيرًا من المجتمع المصري على مدار السنوات القادمة، لكن لا بد أن تتاح له فرصة ليتطور.

(ف. ي.) الناشط اليساري المخضرم، أكثر تفاؤلاً بكثير، يقول "بغض النظر عن نتيجة الاستفتاء، إحنا كسبنا كتير". الكثير من الحركات الشيوعية والاشتراكية التي كانت تعمل في الخفاء بشكل غير قانوني أصبحت تعمل علنًا. بعضها على اتصال بالنقابات الجديدة الحرة. ها هي الأحزاب والحركات اليسارية تظهر بقوة وبكثرة. الموضوع الأهم في رأي (ف. ي.) هو تهيئة شبكة لتنسيق العمل بين حركات اليسار، كي يتمكنوا من منافسة الإخوان والحزب الوطني.

في رأي (ف. ي.) من الجيد أن الإخوان قرروا الانضمام إلى حملة "نعم" لأنهم هكذا "أثبتوا للكل اللي إحنا عارفينه، إنهم جزء من النظام". في رأي (ف. ي.)، وارد أن يصل الإخوان إلى السلطة في تحالف مع عناصر من النظام القديم، لكن ليست هذه بكارثة بما أن الجديد هنا هو أن يصبح المعروف بشكل غير رسمي منذ السبعينيات معروفًا رسميًا. مع الانسحاب التدريجي للدولة من تولي دور الجهة الموفرة للخدمات إلى التحرر الاقتصادي، مُنحت الحركات الإسلامية والدينية بشكل عام دورًا أكبر في توفير الخدمات غير الحكومية في نظام الحكم الرأسمالي الجديد. يرى (ف. ي.) أنه بموجب هذه الصفقة، أصبح للإخوان ميزة اجتماعية، لا بد على الاشتراكيين والحركة العمالية الآن أن تلحق بركابها، مع النزول إلى الشوارع والأحياء الشعبية وهزيمة الإسلاميين في عقر دارهم. جزء من الخطة هو رفع قضايا على الجمعيات الخيرية الخاصة بالإخوان المسلمين، والتي تربط خدماتها عادة بفرض شروط

عقائدية، وهو ما يعتبر ضد قانون الجمعيات الأهلية. لكن المهم أن يتواصلوا مع الناس ويدعموهم، وتُعرض الخدمات عليهم، ويُبذل النشاط الاجتماعي: "الفقراء مش حمل الأيديولوجيات، لو رحت لهم وعرضت عليهم مساعدة بياخدوها. مش محتاج فكر أيديولوجي قوي عشان تميز بين رغيف واحد ورغيفين". في رأي (ف. ي.) فإن هذه هي أزهى فترات الإخوان المسلمين، لكن أيامهم معدودة لأنهم في النهاية جزء من النظام القديم الفاسد، ولن يتمكنوا من حل مشكلة انعدام العدالة الاجتماعية، وهي المشكلة التي أدت إلى خروج الناس في الثورة بالأساس.

(و) بدوره اشتراكي مخضرم وناشط ثقافي، وهو أقل حماسًا فيما يخص قدرات تواصل الحركة اليسارية. هو بدوره شارك في الثورة بقوة، وعندما قابلته في المساء كان في غاية الإرهاق. لم يشارك فحسب في عدد من الأنشطة الثقافية وحملة توزيع المنشورات عشية الاستفتاء، بل هو أيضًا من أعضاء اللجنة الشعبية في منطقة المركز الثقافي الذي يعمل فيه. بالأمس حضر اجتماعًا لحزب اشتراكي آخر. هو ليس قلقًا من تفرق الأحزاب اليسارية، ما يقلقه هو أن النقابات مشغولة حاليًا بعرض مشكلاتها على الوزارات، ولا تركز على الوضع السياسي الأعمّ. هذه المطالب، التي تشمل في العادة تحسين الأجور وتغيير الهيكل الإداري، معروفة في مصر حاليًا بمسمى "المطالب الفِئوية"، وقد أصبحت هذه الكلمة وكأنها سبّة. بالنسبة إلى النشطاء مثل (و) هذه المطالب جزء هام من العمل السياسي، وهي أيضًا تعيق تنسيق السعي نحو أهداف أكثر عمومية.

دكتور (أ) طبيب نفسي مهتم بالجانب الروحاني للدين، كأسلوب لمساعدة الناس في حياتهم، يقول إنه غير متشائم ولا متفائل: التشاؤم والتفاؤل، في رأيه، أمور

تنتمي إلى زمن ما قبل الثورة، الآن هو وقت العمل. يقول إن الكثير من الناس يناقشون الاستفتاء معه، ولا يقول رأيه وكيف سيصوت، لكنه يشجعهم على التصويت واتخاذ القرار بأنفسهم. سوف يصوت بـ "لا"، على حد قوله، لكن الأهم له هو مستوى الوعي السياسي والنشاط العفوي للشبان، وهو ما لم يره من قبل. قال: "في صلاة الجمعة النهاردة، بعد الصلاة، شفت الناس بيوزعوا منشورات نعم وغيرهم بيوزعوا منشورات لا. أصبح ناس ما شفتهمش قبل كدة نشطاء. رحت للي بيوزع منشورات لا وشكرته على نشاطه". ناقشنا ما سيحدث لهذا التيار الجارف من النشاط إذا صوتت الأغلبية بنعم. قلقي يتركز على أنه إذا انتصر صوت نعم، فقد يعتبر هذا أول إحباط حقيقي للثوار (باستثناء الإخوان طبعًا الذين سيصوتون بنعم)، وقد يؤدي إلى موجة من الإحباط ويؤدي إلى استسلام الكثيرين. رد الدكتور (أ) إن السؤال لا بد أن يكون عن تحول روح الثورة إلى روح التجربة والخبرة. الثورة حالة نفسية وعاطفية، هي إذن مرحلة تحول، وإن كانت تُخلِّف في المرء أثرًا قويًا. لكن يصاحب الثورة أيضًا تجربة، وهذه التجربة العملية تغير قطاعًا كبيرًا من الشعب المصري حاليًا.

الثورة مطرقة: تغيرات وتحولات اجتماعية متناقضة

سيكون التغيير متناقضًا. الثورة مطرقة، تصلح لتكسير جدران القمع والإحباط واليأس، وهي طريقة للتغيير تؤدي إلى قدر كبير من التدمير، وهي أسلوب فيه قدر كبير من المخاطرة، ولا أحد يعرف إلى أين ستؤول الأمور. قد يصلح عقد مقارنات كثيرة مع الثورة الإيرانية في ١٩٧٩، أو الثورتين الروسيتين في ١٩٠٦ و١٩١٧، أو ثورات الكتلة الشرقية من ١٩٦٨ إلى ١٩٨٩، أو ثورة شباب غرب أوروبا وأمريكا

الشمالية في عام ١٩٦٨، لكن الشيء الوحيد اليقيني هو أن الثورات غير قابلة للتنبؤ. بعد انتهائها سنكون قادرين على تحديد بعض الفاعلين والجماعات والتفاعلات والقرارات التي ستحدد مسار الأحداث، ولكن لا أحد يعرفها من قبل.

ما أعرفه هو أن ثورة ٢٥ يناير شُيدت على عدد من التفاعلات الاجتماعية التي كانت حاضرة في مصر خلال السنوات الماضية، والتي تلعب حاليًا دورًا هامًا، وفي أثناء ذلك فهذه التفاعلات تتحول وتتغير.

التفاعل الأول: هو عودة النظام الرأسمالي منذ السبعينيات بعد فترة من الاشتراكية العربية، والأثر الاجتماعي الداهم للرأسمالية على المجتمع، والتي وفرت ثروة هائلة للنخبة السياسية الاقتصادية، ومنحت بعض الثروة للطبقة المتوسطة الجديدة، وأحدثت هوة كبيرة بين الوعود والواقع للقطاع الأكبر من الشعب. مصر في عهد مبارك كانت نظامًا ديكتاتوريًا ليبراليًا، فيه فرص كبيرة للاستثمار ومولات جميلة جديدة ومنتجعات سياحية وترفيهية، ومساحة واسعة لأساليب حياة مختلفة، بشرط توفر المال اللازم. كانت مجتمعًا طبقيًا من الدرجة الأولى منقسمًا إلى أبعد حد، يسيطر عليها جهاز أمني في منتهى القسوة والعجرفة يعامل المواطنين وكأنهم مجرمون، وللمجرمين عنده رواتب شهرية. كما قال والتر أمبروست في تحليل مبكر وصحيح للغاية، فإن ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١ وُجِّهَت في البداية ضد مركب من تراكم الثروات والامتيازات الطبقية والعائلية والقمع اليومي. من ثَم فإن مسار ومعدل تغير هذا المركب المذكور لصالح المواطن المصري العادي، هو المقياس الأساسي الذي سيقيس عليه الأمور من قاموا بالثورة لتقدير درجة نجاحها.

ثانيًا: موجة من نوع محدد للغاية لليمين الديني، تتعرض لها مصر على مدار السنوات الثلاثين الماضية. على مدار السنوات العشر الأخيرة اتسم التدين بأنه لا سياسي، واتخذ بالأساس طابعًا اجتماعيًا، لكن ها هو الآن يتبين أن السبب كان بالأساس القيود التي فرضها نظام مبارك بشكل ممنهج من أجل نزع الطابع السياسي عن الحركات الاجتماعية. أصبح التيار الديني المحافظ حاليًا مُنفَتِحًا سياسيًا (وكذلك المشروع الثقافي لليسار)، مما يؤدي إلى ظهور أنواع جديدة من الانقسامات. بعض زملائي قالوا بأن الاحتجاج الثوري قدَّم لغة جديدة للمعارضة، منطقًا جديدًا للتفكير في العلاقة بين الدولة والمجتمع والدين والفرد، لأن الثورة تقع خارج نطاق التناقض بين ما هو علماني وما هو ديني. قد يكون هذا هو انطباعك- بالطبع- إذا ركزت على اللحظة اليوتوبية في مظاهرات ميدان التحرير. لكن اللحظة اليوتوبية أفسحت المجال الآن أمام فترة انتقالية. الروح المشتركة بين الناس، للاحتجاج، أصبح من المستحيل الحفاظ عليها ما إن تحقق الهدف المشترك، وإن كان من المرجح أن تكون ذات آثار إيجابية على السياسة المصرية على مدار السنوات القادمة. يظهر من التطورات السياسية للمرحلة الانتقالية عودة قوية لهذا التناقض في أشكال جديدة، المقلق بينها هم السلفيون ورفضهم لفكرة الديمقراطية، لاعتقادهم أنها غير إسلامية، وأيضًا أسلوب ترتيب اليسار والقوميين لصفوفهم لمواجهة تحالف النظام القديم والإخوان المسلمين. عودة التيار الديني المحافظ إلى ما هو سياسي لا يطرح على الساحة معايير محددة، فمصر على كل حال مجتمع محافظ ومتدين إلى حد بعيد، بل هو يطرح أسئلة، على المصريين طرحها والإجابة عليها.

لكن الأهم من مسألة من سيدير البلاد على مدار السنوات الأربع أو الثماني القادمة، هو طبيعة هذا التيار الديني المحافظ كجزء لا يتجزأ من النظام الرأسمالي، كما أوضح المثقف اليساري (ف. ي.). ترتبط قوة أفكار الإسلاميين الخاصة بالسياسة والمجتمع في مصر بتجربة حياة اجتماعية بلا أخلاق، تبتعد عن تجربة المجتمع التقليدي، نحو تجربة اجتماعية تنافسية متشظية، يتعين فيها على من يريد الأخلاق أن يرجع إلى الكتب. قوة وعد الإسلاميين بالحياة الصالحة تزيد وتقل مع علو وانخفاض النظام الرأسمالي. رغم أنني لست اشتراكيًا، فإنني أعتقد أن الاشتراكيين والحركة العمالية قد يكون لهم قول في المستقبل، أقوى مما أرى منهم في الوقت الراهن.

ثالثًا: العلاقة المتوترة بين المواطن العادي والدولة، والتي اتسمت لفترة طويلة بسعي المواطن نحو رعاية الدولة له، ولعنه للإهانة التي يلقاها في سعيه نحو رعاية الدولة له. إحراق أقسام الشرطة في ٢٨ يناير كان فعلاً ثوريًا عفويًا ضد هذه التجربة التي يعيشها المواطن منذ سنوات، وقد أطلقت نمطًا متناقضًا من التفاعلات. حتى اليوم عدد رجال الشرطة في الشوارع قليل، رغم أنه من المفترض أن الشرطة عادت قبل أسابيع. أدى هذا جزئيًا إلى تحسن الأمور، إذ أصبح الناس يعانون من إهانات وتعسف أقل مما سبق، وأدى هذا جزئيًا أيضًا إلى بث الحيوية في الشوارع، إذ أصبح الباعة الجائلون الذين كانوا يلعبون القط والفأر مع الشرطة يعملون بحرية في شوارع القاهرة التجارية. لكن الأهم أنها مشكلة جسيمة، مع زيادة معدلات الجريمة والخوف من الجريمة بعد الثورة، مع تفاقم الوضع أيضًا، إذ أن الكثير من المواطنين أصبحوا بعد ٢٨ يناير يملكون أسلحة نارية كثيرة تخص الشرطة. الخوف من الجريمة والعنف هو الحجة الأقوى في أيدي من يريدون عودة الأمور إلى ما كانت عليه. من يسعون إلى

استمرار الثورة يميلون إلى لوم الشرطة نفسها، ويرون في تأخر عودتها إلى الشوارع استمرارًا لحملة التخويف، لكن أعتقد أن هناك ما هو أكثر في هذا الموضوع. يبدو أن السبب الأساسي هو أن ضباط الشرطة غير مستعدين للبدء في دورهم الجديد، كخدام للشعب. هناك مقاومة قوية للتحقيق الجنائي مع ضباط الشرطة. في بداية هذا الأسبوع، خرج ضباط شرطة من محاكم في الإسكندرية، حيث كان يفترض بهم حمايتها من مظاهرات أمام المحاكم، تخص محاكمة ثلاثة ضباط شرطة متهمين بقتل المتظاهرين. تظهر هذه الروح المتعالية أقوى مما تظهر في مقطع فيديو انتشر على الإنترنت في مطلع مارس، يظهر فيه مدير أمن يقول لرجال الشرطة "إحنا أسياد البلد".

كان إحراق أقسام الشرطة تجربة مؤلمة للشرطة، وتجربة مبهمة للمواطنين الذين لاحظوا تهذيب ضباط الشرطة الجديد عليهم في الشوارع بقدر كبير من الرضا، وإن كانوا يعانون في الوقت نفسه من انعدام الأمان بسبب الجرائم. سوف تبقى العلاقة بين المواطن والشرطة سؤالاً مفتوحًا لفترة طويلة، وبينما يبدو أن لا رجعة إلى الماضي، فمن غير الواضح إن كان سيُفرض قاعدة جديدة سليمة للعمل الشرطي. سوف تبقى العلاقة متوترة، والأسلحة التي أخذها الأفراد ستبقى معهم، ومن المرجح أن تصبح الجرائم من التهديدات اليومية الأكثر بروزًا التي تهدد المصريين.

رابعًا: أزمة السلطة الأبوية، متمثلة في تخلص الثوار من مبارك على طريقة أوديب، مبارك الذي كان الأب أو الأب الروحي للأمة. كتبت أكثر عن هذه النقطة في فبراير، وفي الوقت الراهن أود أن أشير إلى أن هذا الأمر لم يجمع عليه كل المصريين إطلاقًا. هناك الكثير من الناس لم يعتقدوا أن مبارك سيرحل حتى اللحظة الأخيرة، ولم

يجرؤوا على الخروج إلى الشارع ولم يهتموا، هؤلاء الناس بدورهم يرون أن الثورة ثورتهم الآن، لكن بالنسبة إليهم فالتجربة النفسية مختلفة تمامًا. ومن كانوا يرون أن مبارك سيرحل ومن آمنوا في الثورة دون احترام أو خوف من الأب الجَمْعِي، لديهم آراء مختلفة تمامًا لمن سيحل محل الأب الجمعي الذي يخشاه ويحترمه الجميع. الأمور تتحرك، والبعض يبحث عن مصادر جديدة موثوقة للسلطة، بينما هناك آخرون يطالبون بحرية التعبير عن ما يدور بخلدهم، وغيرهم يجربون أنفسهم في التنظيم بلا قيادات للحياة، والمناقشات متعددة الأطراف والآراء. هذا التحول في هيكل السلطة وفي استحقاق المرء للتعبير عن نفسه سيكونان الصراع الأكبر والأمرّ الذي ستواجهه مصر خلال العقود القادمة.

الثورة والمشاعر

لهذا أعتقد أن الثورة المصرية ستأخذ مسارًا جيدًا رغم تحطم الكثير، ورغم مقتل الناس، ورغم أنه من المرجح أن يصل إلى السلطة الأطراف الخطأ. اتسمت مصر خلال السنوات العشر الماضية بتناقض هائل بين الوعود الكبيرة والتوقعات العالية على جانب، والإحساس بالمهانة والاكتئاب والإحباط واليأس على الجانب الآخر. فتحت ثورة ٢٥ يناير طريقًا بديلاً للإحساس بالعالم، وتحركت الأمور. ستعود بعض الأشياء إلى طريقتها القديمة، وسوف تتحسن أمور أخرى، وسوف تتدهور بقوة أشياء كثيرة. لكن المهم أنه أصبح من الممكن للناس أن يقاوموا ويأخذوا لأنفسهم نصيبهم من العالم. كان الكثيرون في مصر يشعرون أنه لا يمكن عمل أي شيء، والكثيرون يشعرون الآن أن التغيير ممكن. سوف يفعلون شيئًا، للأحسن أو للأسوأ.

الثورة حالة عاطفية، وهي حالة كثيفة وعصبية ومثيرة للتوتر والقلق. لا يمكن لإنسان أن يمضي على طريق الثورة لفترة طويلة. التحول من حالة الثورة إلى الحالة الانتقالية هو تحول متعب ومثير للتوتر بدوره. (ر)، وهي فنانة، مريضة بـ "إنفلونزا ما بعد الثورة" كما تسميها، مثل الكثيرين غيرها ممن قابلت، فهي متعبة عاطفيًا، وتقول إن الشهر ونصف الشهر الماضي كان أصعب فترة في حياتها على أعصابها. رغم أنني أمضيت ثلاثة أسابيع فقط في مصر منذ بدء الثورة، فقد انهارت أعصابي. بدأت أدخن مرة أخرى، وأصبت بالأرق، مع أني على النقيض من كثيرين غيري، لم أتعرض لأي تجربة سيئة حقيقية. لكن هناك التوتر الدائم الذي لا يهدأ، وهو نفس التوتر الذي تحدث عنه (م)، إذ تحدث عن كيف أصبح البلد بلده، مثل الكثير من المصريين الذين يشعرون بهذا الشعور، أنا قلق لأنني مهتم. وبعد أن عاش المصريون لفترة طويلة في بلد يبدو أن حاله راكدة لا تتغير، بعد أن كان مقدرًا لهم أن يعيشوا المزيد والمزيد من هذه الحالة دون تغيير، فليس من السيئ على كل حال أن تشعر بهذا النوع من التوتر والقلق.

عن الكاتب

وُلد صامولي شيلكه في هلسنكي عاصمة فنلندا في عام ١٩٧٢. حصل على الماجستير في الدراسات الإسلامية والفلسفة والعلوم السياسية من جامعة بون، ألمانيا، في عام ٢٠٠٠. درس الدكتوراه في المعهد الدولي لدراسات الإسلام في العالم المعاصر ISIM من عام ٢٠٠١ إلى ٢٠٠٥، في هولندا.

حاصل على درجة الدكتوراه في العلوم السياسية من جامعة أمستردام في عام ٢٠٠٦، وأجرى بين عامي ٢٠٠٦ و٢٠٠٧ بحوثًا في قسم الأنثروبولوجيا والدراسات الإفريقية بجامعة مينز، ألمانيا، فخرج بدراسة بعنوان "الأماكن المقدسة وتقديس الأولياء في مصر وأثيوبيا". ثم أتم مشروعًا بحثيًا في جامعة جوينسو في فنلندا والمعهد الدولي لدراسات الإسلام في العالم المعاصر في هولندا بعنوان "من هو المسلم الصالح؟: مفاهيم ذاتية متنازع عليها عن التدين في عصر الإسلام العالمي".

يُدَرِّس الكاتب "الفوتوغرافيا والأنثروبولوجيا" في برنامج دراسات الماجستير بقسم الأنثروبولوجيا البصرية والإعلامية في جامعة برلين الحرة.

من أعماله:

- "أفكار جديدة عن الأنثروبولوجيا في الإسلام، وكيفية فهم المقولات الكبرى في سياق الحياة اليومية" – دراسة (٢٠١٠).

- "التقوى في رمضان: التكافؤ والتشظي والذات الأخلاقية في حياة الشباب المصري" – دراسة (٢٠٠٩).
- "تنظيم المتناقضات: الموالد وجغرافيا الأخلاق في الأماكن العامة في مصر"– دراسة (٢٠٠٩).
- "الملل واليأس في الريف المصري" – دراسة (٢٠٠٨).
- "ثعابين وأولياء: الموالد وسياسة الاحتفال والتقوى والحداثة في مصر المعاصرة" – دراسة (٢٠٠٦).
- "ما الشعبي في المعتقدات الشعبية؟" – دراسة (ترجمة: إبراهيم فتحي، مجلة فصول– العدد ٦٠– صيف وخريف ٢٠٠٢).

للمزيد عن الكاتب: http://www.samuli-schielke.de/